• الفصل الرابع •

□□ علاقات مصر بممالك النوبة والسودان

obeikandl.com

obeikandl.com

العلاقات بعد الفتح العربى لمصر (عصر الولاة)

اتجه عمرو بن العاص بعد فتح مصر سنة ٦٤٠م إلى غزو مملكة النوبة أيضًا؛ ليضمن عدم اعتدائها على حدود البلاد الجنوبية، والمقصود بذلك مملكة دنقله بين أسوان وكورتى: فحاول عقبة بن نافع الفهرى ـ أخو عمرو لأمه ـ فتحها سنة ٦٤٢م إلا أن محاولته لم تنل نجاحًا مذكورًا؛ بسبب المقاومة العنيفة التى أبداها الجيش النوبى، وما أظهره من الجلد وشدة المراس. ويظهر أن دربة النوبيين على رمى السهام كانت فائقة؛ فقد أثخن الجيش الإسلامى بالجراح، وأصيب كثير من رجاله فى أعينهم؛ فسمى النوبيون لذلك «رماة الحدق»[١]. ولم تتحدث المراجع كثيرًا عن أخبار تلك الحملة بقدرما تحدثت عن حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرح التى غزا بها النوبه سنة ٣١هـ ـ ٦٥١ م، أثناء ولايته على مصر[٢]. ولعل الدافع الذى حدا بابن أبى سرح إلى مهاجمة بلاد النوبة رغبته فى تقليد الفتوحات، التى قام بها سلفه ومنافسه عمرو بن العاص[٣]. والواقع أن ابن أبى سرح أفاد من الفشل المرير الذى منى به جيش عمرو فى بلاد النوبة، فاحتفل بإعداد خطته إعدادًا حسنًا. وتمكنت تلك الحملة من التوغل جنوبًا حتى دنقلة عاصمة المملكة، فحاصرتها حصارًا عنيفًا وخربت كنيستها الكبرى. على أن مراحل نجاحها لم تتعد هذا القدر؛ إذ ثبت ملك النوبة قليدورات Kaldourat للمقاومة حتى أنهك الجيش العربى، واضطر قائده إلى عقد الصلح[٤].

وهذا الاتفاق هو المعروف فى المراجع العربية باسم البقط، وهو حسبما ذكر ڤيت Wet لفظ مشتق من أحد أصلين: الأول يونانى pactum، ومعناه الاتفاق أو الموادعة، والثانى مصرى قديم bak ويقصد به الضريبة التى كانت تجبى عادة من

بلاد النوبة والسودان[٥]. وأساس هذا البقط هو أن يدفع صاحب النوبة إلى بيت المال فى مصر خمسة وستين وثلثمائة رأس من الرقيق فى كل عام : وهو عدد مكافئ لأيام السنة، ويدفع للوالى بمصر أربعين رأسًا، كما ينال نائب الحاكم المقيم بأسوان، والذى يتولى تسلم الرقيق فى بلدة «القصر» عشرين رأسًا، ولمندوب الوالى الذى يحضر مع أمير أسوان خمسة، ولكل من الشهود العدول فى البقط ـ وعددهم اثنا عشر ـ واحد أيضًا[٦]. وفى نظير ذلك يقوم المسلمون بإمداد النوبة بألف أردب من الغلال : ويهادى السفراء بثلثمائة أردب، كما يرسل اليها ما يمكن إرساله من الحبوب الأخرى ـ كالعدس مثلا ـ إلى جانب أنواع الأقمشة المختلفة.

ويتضح مما سلف.. أن البقط كان مصلحة متبادلة بين الطرفين، فيستخدم رقيق النوبة فى الخدمة لدى الخلفاء ورجال الدولة، ويستفيد النوبيون من الغلال التى لا تتوافر فى بلادهم. وهو كذلك أشبه بمعاهدة اقتصادية، وليس فيه معنى الجزية التى تستتبع الخضوع السياسى لنفوذ المسلمين. وتجمع الروايات التاريخية على أن البقط ليس «بجزية ولا خراج»[٧] وقد أورد المدائنى مسألة البقط تحت عنوان «كتاب موادعة النوبة»[٨] ونص عبارة البلاذرى فى هذا الصدد أنه «ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق إنما هى هدنة بيننا»[٩].

والواقع أن بلاد النوبة لم تتبع لمصر تبعية سياسية حتى ذلك الوقت، بل يذهب كولبو Coulbeaux إلى أنها لم تعد أن تكون منطقة نفوذ إسلاميه[١٠]. وكذلك عقد ابن أبى سرح معاهدة مع ملك النوبة أهم ما جاء فيها «... أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ألا نحاربكم، ولا ننصب لكم حربًا، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عند المسلمين[١١]». ومنذ عقد تلك الاتفاقية تحسنت العلاقات بين النوبة ووالى مصر ابن أبى سرح، فتبودل ما جاء فى البقط، وأرسل ملك

النوبة منبرا خشبيا بديع الصنع لوضعه فى جامع عمرو، وأرسل فكتور ـ وكان نجارًا نوبيًا ماهرًا ـ لتركيبه فى ذلك الجامع(١٢).

على أن مسألة البقط قد أثارت كثيرًا من الفتن والحروب بين مصر الإسلامية ومملكة دنقلة المسيحية، وكثيرًا ما نقضت دنقلة شروط البقط، وحاولت أن تغزو حدود مصر الجنوبية لتثأر لنفسها. والأمثلة على ذلك متواترة، فتعددت إغارات الجيش النوبى على ثغر أسوان وعيذاب والصعيد الأقصى والواحات الخارجة؛ بغية الانتقام من المسلمين(١٣). ولعل أفظع هذه الحملات النوبية تلك التى قادها ملك النوبة كرياكوس سنة ٧٢٧م حين أثخن فى بلاد الصعيد وأسر وقتل وخرب ماوسعته طاقته على رأس جيش، عدته حوالى مائة ألف جندى(١٤). وسبب هذه الحملة قبض عبيد الله بن الحبحاب على البطرك القبطى بمصر، وإلقاؤه فى السجن، فحركت تلك الفعلة ثائرة ملك النوبة الذى لم يوقف تقدمه فى الصعيد سوى إطلاق سراح البطرك وتوسله إليه بالعدول عن مشروعه(١٥). ويلاحظ كذلك أن ثمة إغارات نوبية على مصر، فى الفترات التى يستشرى فيها الفساد والوهن فى الحكومة الإسلامية القائمة بمصر. ومن أمثلة ذلك الحملة التى أنفذها ملك النوبة إلى مصر، فى أواخر عهد كافور الإخشيدى، حين تضررت مصر مما عانته من آلام المجاعات والأوبئة(١٦). كذلك حدثت غارة نوبية على مصر فى أواخر أيام الدولة الفاطمية. ويظهر أن تبادل البقط قد فدح الجانب الإسلامى، ولم يستفد منه شيئًا، كما استشعر الجانب النوبى بما فيه من مهانة. وذكر المقريزى أن ملك النوبة زكريا بن خنس أوفد ابنه مبعوثًا إلى الخليفة المعتصم ببغداد ليبث إليه شكواه من البقط، فأكرم الخليفة وفادته «ونظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقط». . . «وتم الاتفاق مع ابن الملك النوبى على ألا يكون البقط سنويا وإنما يدفع كل ثلاث سنين»(١٧) .

أما حكام مصر الإسلامية فقد تمسكوا بهذا البقط وشروطه؛ لما فيه من معنى لبسط نفوذهم على تلك الجهات، فكانوا من ناحيتهم لا يتأخرون عن مهاجمة النوبة كلما سوفت أو ماطلت فى دفع المقرر عليها من البقط. كذلك دأبت كثير

من الدول التى تأســت بمصر على تأكيد ذلك النفوذ. ومن هذا القبيل ما ذكرته بعض المراجع من أن جوهر الصقلى ـ أثناء تأسيسه لدعائم دولة الفواطم ـ بعث ابن سليم الأسوانى برسالة إلى ملك النوبة قيرقى (جورج ؟) يطلب منه اعتناق الإسلام ودفع البقط، الذى يظهر أنه قد انقطع منذ أواخر عهد كافور، فأجاب ملك النوبة على الشق الثانى من مطالب الـسفير الفاطمى[١٨].

النوبة وتأسيس الدولة الأيوبية

ويقال إن صلاح الدين أزمع أن يتخذ من بلاد النوبة نواة لمشروع خطير، يتصل بتأسيس دولته حين حاول أن يجعل من تلك البلاد موئلا له ولأسرته إذا ماهاجمه نور الدين بمصر. فبعث لذلك أخاه شمس الدين توران شاه سنة ٥٦٨ هـ ـ ١١٧٢م على رأس جيش توغل فى بلاد النوبة حتى ابريم فخرب وسبى. إلا أن تقرير توران شاه قد جاء مخيبا لذلك المشروع[١٩]. على أن هذا التغلغل لحملة صلاح الدين على النوبة مسألة فيها نظر؛ إذ ليـست السياسة الصلاحية ساذجة إلى هذا الحد الذى تدبر فيه تأسيس دولة بأرض مقفرة جدباء.

والراجح أن لتلك الحملة دوافع أخرى تتصل بمشروع غزو اليمن، وهى البلاد التى رنا صلاح الدين فعلا إلى اتخاذها مقرًا لدولته، إذا ما اضطره نور الدين لترك مصر. ولعله أراد أن يسلك من بلاد النوبة طريقًا قريبًا إلى اليمن، أو ربما كانت حروبه فيها ذرًا للرماد فى العيون، فإن صلاح الدين ظل يكاتب الخليفة العباسى بالبشرى، كلما فتح بلدًا فى النوبة فيوهم الخليفة ونور الدين بذلك إلى أنه يـسعى لمد نفوذ الخلافة لتلك الجهات[٢٠] وقد يكون من أسباب إنفاذ تلك الحملة أيضًا القضاء على البقية الباقية من دعاة الفاطميين، الذين حاولوا إعادة الدولة الفاطمية الزائلة[٢١].

مصر وكنيسة النوبة القبطية

وللنوبة صلة أخرى بمصر تجب الإشارة إليها، وتلك ترجع إلى ما قبل العصر الإسلامى، وهى الصلة الدينية بين الكنيـسة النوبية اليعقوبية وبين البطركية

المرقسية فى الإسكندرية، إذ كان يشمل البطرك كنيسة تلك البلاد برعايته الدينية بصفتها كنيسة قبطية، فيرسم لها الأساقفة كلما احتاجت إلى ذلك. وكثيراً ماتوسط البطرك لإعادة الطمأنينة والمحبة بين مملكتى مقرة وعلوة لبلاد النوبة والسودان، وفض المشاكل التى يقوم من أجلها النزاع بينهما. ومن أمثلة ذلك توسط البطرك إسحق (٦٦٧ ـ ٦٨٨م) فى ولاية عبد العزيز بن مروان لدى هاتين المملكتين؛ لإيقاف ما بينهما من حروب، وإقرار الوئام حرصًا على سلامة الكنائس وعمرانها فى بلادهم(٢٢). وقد تعرض البطاركة فى مصر من جراء تبعية تلك البلاد لكرسيهم إلى بعض صنوف الاضطهاد أحيانا، خصوصا إذا حدث من ملك النوبة ما يبلبل خاطر الحكومة الإسلامية بمصر، فقد قبض الوزير الفاطمى المازورى على البطرك كرستودلوس Chrstodulus وألقاه فى غيابة السجن حين وصل إلى مسامعه أنه يقوم بتحريض ملك النوبة على منع البقط عن الخليفة المستنصر(٢٣).

مصر المملوكية والنوبة ـ سياسة السلطان بيبرس

وفى عهد سلاطين المماليك اصطبغت علاقات الدولة المصرية ببلاد النوبة بصبغة صليبية، بعد أن استفاضت أخبار الصليبيين ودولهم وإماراتهم بفلسطين والشام، وما أحدثه صلاح الدين بها. وإذا كانت المراجع لا تشفى فى الدلالة على ذلك التطور.. فإن فى أخبار قيام ملك النوبة بالإغارة على البلاد المصرية، وما قام به من أعمال التخريب ما لا يمكن إلا أن يؤدى إلى ذلك الاستنتاج. ذلك أن داود ملك النوبة انتهز فرصة انشغال السلطان بيبرس بحروبه بمملكة أرمنيا الصغرى للقيام بحملة كبيرة سنة ١٢٧٢م ضد مصر، فهاجم ثغر أسوان وأسر به كثيراً من المسلمين، كما أغار على ثغر عيذاب ميناء البحر الأحمر فى الجنوب، وأحدث به من الأفعال المنكرة ما يدل على تحرقه للتشفى من المسلمين. وآية ذلك أنه أسر عدداً جما من المسلمين وسخرهم لبناء مكان بعاصمته دنقلة سماه عيذاب، وابتنى فيه المساكن والكنائس والميادين، وزين كل هذا بصور لحوادث مقتل المسلمين وأسرهم(٢٤). وكان مما زاد فى غيظ السلطان بيبرس من أخبار تلك الحملة الجريئة أن ملك النوبة تعدى على التجارة المملوكية بإغارته

على عيذاب، وهى السوق التجارى الهام[٢٥]. ولهذا كله ذهبت الحملة المملوكية سنة ٦٧١ هـ ـ ١٢٧٢م لإيقاف ملك النوبة عند حده، وقد نجحت فى تحقيق ذلك الغرض، ولكنها لم تستطع الظفر به، وإنما قبضت على صاحب الجبل أحد عماله، وطائفة أخرى من الأسرى، وأحضروا جميعًا إلى مصر حيث أمر السلطان بسجنهم.

على أن حملة بيبرس التى أنفذها فى رجب ٦٧٤ هـ ـ يناير ١٢٧٦م، تعتبر ـ دون تزيد أو مبالغة ـ أول تجريدة عسكرية من نوعها سواء فى وسائل إعدادها وظروفها، أو فى نتائجها وأهميتها فى تقرير العلاقات بين مصر وبلاد النوبة. والسبب المباشر لتلك الحملة الثانية مجيء شكنده إلى مصر، مستجيرًا بالسلطان بيبرس من ابن أخيه داود الذى كان قد خلعه عن العرش[٢٦]. وصادفت تلك الاستغاثة هوى فى نفس السلطان، الذى كان موتورًا من داود وأفاعيله فى الحدود الجنوبية وعيذاب، فجرد مع شكنده جيشًا بقيادة الأمير شمس الدين أقنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم. وكان من ضمن الحملة ثلثمائة فارس وطائفة كبيرة من الزراقين والرماة ورجال الحراريق والزردخاناه[٢٧]. وأمر السلطان بتسليم شكنده ما يتم فتحه من بلاد النوبة، وقد كاتب الأمير شمس الدين السلطان بما تم على يده أو على يد زميله الأفرم من نصر وفتح.

وخلاصة المكاتبة الأولى التى وردت إلى الأبواب السلطانية ـ فى شوال من تلك السنة ـ هى أن الأفرم قد بدأ بالاستيلاء على قلعة الدر[٢٨]، وسار شمس الدين على أثره يستأصل شأفة ما تبقى من عناصر المقاومة النوبية، ورتب الجنود فى البر والبحر للفتك بالعصاة، وجمع ما يعثرون عليه من المواشى والمؤن. وقد واصل شمس الدين سيره حتى بلغ جزائر ميكائيل المعروفة الآن باسم جانساب[٢٩]. وحاول صاحب الجبل قمر الدولة كشى الهرب، فقبض عليه ثم أخلى سبيله، على أن يستمر فى نيابته بشرط التبعية للملك شكنده. ومن ثم أظهر كشى همة ملحوظة فى معاونة الحملة النوبية، وإمدادها برجال مقاطعته من أهل المريس، كلما احتاج الأمر إلى معونتهم فى الحرب، أو تقفير المراكب[٣٠].

ثم وردت مكاتبة أخرى، لم تذكر المراجع تاريخها، وإنما مضمونها تبرم شمس الدين الفارقانى من قلة الازواد لدى العسكر. وبرغم ذلك فقد ذكر أن الحملة أغذت فى سيرها جنوبًا، واستطاع رجالها بعد ملحمة عنيفة أن يكرهوا الملك داود على الهرب، وأن يأسروا أخاه شنكو، وأن يتابعوا السير ثلاثة أيام جنوبًا، وأن يقبضوا على أم الملك داود. وعلى هذا النحو انتهت الأعمال الحربية لتلك الحملة، وأخذ القائدان فى وضع قواعد العلاقات السياسية بين المملكتين، بعد أن تم تتويج شكنده ملكًا على النوبة. وتتلخص الأسس التى تم اتفاق الجانبين عليها فيما يأتى:

أولا ـ إرسال البقط السنوى المعتاد من الرقيق، مع جملة معينة من الهدايا للسلطان من الفهود والفيلة والزراف، وغير ذلك من طرف بلاد النوبة، فى نظير إرسال الغلال من مصر(٣١).

ثانيا ـ التزام شكنده بالاستيلاء على ما يقع تحت يده من مخلفات الملك داود وأسرته من الأموال والدواب، وغير ذلك من أموال من قتل أو أسر من النوبيين، وإرسال ذلك كله إلى السلطان(٣٢).

ثالثا ـ لم تنته شروط الاتفاق على هذه الصورة المعتادة التى صار يفرضها الجانب المصرى إثر حملاته على بلاد النوبة، بل جد هنا أمر خطير، وهو فرض السيادة المملوكية الفعلية على الجزء الشمالى من بلاد النوبة، ويقدر بربع مساحتها. وقد حدد المقريزى فى «السلوك» هذا الإقليم بأنه «بلاد العلى وبلاد الجبل(٣٣)». أما بلاد الجبل فهى معروفة، إنما اللبس فى بلاد العلى إذ يتبادر إلى الذهن أنها بلاد علوة، وذلك تفسير بعيد لا يؤيده الواقع؛ إذ أن ما ضم إلى مصر من بلاد النوبة ـ حسبما ورد فى المصادر ـ هو الجزء المصاقب لأسوان. وبذكر ابن أبى الفضائل فى هذا الصدد ما يساعد على التعريف بهذه المنطقة ونصه «وقرروا أيضًا أن تكون دو (الدر) وأبريم وهما قلعتان حصينتان قريبتان من أسوان، بينهما سبعة أيام خاصا بالسلطان»(٣٤). ويتضح إذن أن بلاد العلى هى غير مملكة علوة دون شك(٣٥). ويرجح أن المقصود من بلاد العلى هو منطقة

العلاقى التى تتأخم بلاد الجبل شرقًا والتى يوجد بها معدن الذهب. وكيفما كان الأمر.. فإن الذى يدعو إلى الالتفات هنا هو أن السيادة المصرية المملوكية امتدت إلى جزء كبير من بلادة النوبة امتدادا فعليًا لأول مرة فى العصور الوسطى.

على أنه إذا كان ضم ذلك الإقليم أمرًا جديدًا بالنسبة لمصر الإسلامية، فهو ليس كذلك من الناحية التاريخية البحتة، فمنذ العصر الفرعونى وهذا الإقليم جزء من صميم الأراضى المصرية. فتذكر الآثار أن الملك زوسر قد وهب خيرات هذا الاقليم للإله خنوم ولكهنته، كما خصصها رمسيس الثالث لهذا الغرض عينه، وأعفى سكانه من الضرائب. وفى العصر اليونانى والرومانى ظل الإقليم على حالته السياسية ذاتها، وأطلق عليه اسم دوديكاهن Dodecahenes، على أن هذه التبعية قد زالت منذ الفتح العربى لمصر، فلم يرد بشأن هذا الإقليم شىء فى اتفاقية ابن أبى سرح مع ملك النوبة. بل ربما زالت السيادة قبل الفتح العربى لمصر؛ إذ يحتمل أن يكون ملك النوبة قد انتهز فرصة الفوضى الضاربة فى أخريات العصر البيزنطى، فأضاف هذا الإقليم إلى مملكته. ولعل الدافع الذى حدا ببيبرس إلى ضم هذا الإقليم ماله من الأهمية الاقتصادية والحربية؛ ففيه يكثر البلح، كما تقوم فيه قلعتان حصينتان فى الدر، وأبريم يمكن استخدامها للإشراف الحربى على بلاد النوبة. ومن أدلة التبعية السياسية المباشرة أن السلطان قد فوض لقمر الدولة كشى نيابة السلطنة فيه(٣٦).

رابعًا ـ أما ما بقى من مملكة دنقلة فيصبح مناصفة بين السلطان بيبرس وملك دنقلة، فتذهب نصف خيرات الإقليم إلى السلطان، والنصف الآخر يحتفظ به الملك النوبى «لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها»(٣٧).

خامسا ـ عرضت على ملك النوبة الأسس الإسلامية الخاصة بمعاملة المغلوب، وهى الإسلام أو الجزية، فاختار الجزية، وفرض دينار على كل شخص بالغ عاقل فى مملكته. وأنشأ السلطان بمصر ديوانا للنوبة يشرف عليه الصاحب بهاء الدين بن حنا الوزير، ومهمة هذا الديوان مراقبة جمع الجزية والخراج وتعيين العمال لذلك(٣٨).

سادسا ـ إطلاق سراح الأسرى المسلمين الذين قبض عليهم داود أثناء إغارته السالفة على أسوان وعيذاب، وردهم إلى بلادهم، كما قُبض على عشرين أسيرًا من أمراء النوبة ليكونوا رهائن تحت يد السلطان.

سابعا ـ دمغت تلك الشروط السالفة وأكدت بيمين حلف عليها شكنده، وهى من وضع ديوان الإنشاء بمصر. وتبدأ بحلف الملك بالله، وبالثالوث المقدس، وبالإنجيل، وبالسيدة مريم، والحواريين والقديسيين الخ... ولا يختلف مضمونها عن صميم الشروط التى سبقت الإشارة إليها. ويبدو فيها مدى الطاعة التامة للسلطان المملوكى، فقد جاء فى ختامها على لسان شكنده «متى خرجت عن جميع ما قررته، أو شىء من هذا المذكور أعلاه كنت بريئًا من الله تعالى، ومن المسيح، ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية وأصلى إلى غير الشرق، وأكفر بالصليب، وأعتقد ما يعتقده اليهود... ومهما سمعت من الأخبار السارة والنافعة طالعت به السلطان فى وقته وساعته، ولا أنفرد بشىء من الأشياء إذا لم تكن مصلحة.. وإننى ولى من والى السلطان، وعدو من عاداه، والله على ما نقول وكيل[٣٩]».

لم يكتف الأميران الفارقانى والأفرم بتحليف شكنده على اليمين السابق فحسب، بل وثقاه بيمين ثانية، أهم ما جاء فيها أنه «متى ورد عليه (شكنده) مرسوم فى ليل أو نهار يطلبه إلى الأبواب العالية أن يحضر لوقته وساعته، وألا يتأخر بوجه من الوجوه إلا بمقدار ما يدبر ما يحتاج إليه من أمور السفر»[٤٠]. وكذلك كتبت نسخة يمين أخرى للرعية بطاعة السلطان ونائبه فى حكم النوبة وهو الملك شكنده، والتعهد بدفع دينار كجزية سنوية»[٤١].

وعلى هذا النحو أتمت الحملة المملوكية مهمتها فى بلاد النوبة، وقفلت راجعة إلى القاهرة، حيث احتفل السلطان بمقدمها فى أواخر ٦٧٥ هـ ـ ١٢٧٦م. وخلع السلطان على الأميرين، واستعرض الأسرى والغنائم من قطع الذهب وأوانى الفضة التى استولى عليها المسلمون من كنيسة سوس Jesus أى كنيسة يسوع بدنقلة[٤٢]، هذا فضلا عن الرقيق الذى بيع الواحد منهم بثلاثة دراهم، واشترط

السلطان فى بيع الأسرى ألا يفرق بين المرأة وغلامها، وألا يباع منه شيء ليهودى أو نصرانى[٤٣].

على أن قصة الحملة النوبية لم تنته فصولها بذلك، بل إنه ما أوشكت سنة ٦٧٥ هـ ـ ١٢٧٦م على الانتهاء، حتى جيء بداود ملك النوبة السابق أسيرًا إلى حضرة السلطان، وقد تقلبت به الأحوال عقب فراره من دنقلة، وانتهى به المطاف إلى مملكة الأبواب حيث قبض عليه غريمه ملكها آدر، وبعث به مع رسله إلى السلطان بيبرس الذى أمر بإلقائه فى السجن مع أمه وأخيه، واستمر على ذلك حتى مات[٤٤].

أما الملك شكنده.. فإن بيبرس لم يطمئن إليه تمامًا، ولذلك عهد إلى أحد العيون واسمه سلامه ـ وهو إسماعيلى فدائى من جهة الأبواب فى الشام ـ بالتردد على بلاد النوبة ومراقبة أعمال ملكها على شريطة ألا يمكن أحدًا من معرفة هويته. ويقال إنه اصطحب معه فى إحدى سفاراته إلى النوبة شابًا آخر فدب النزاع بينهما هنالك، وآثر الشاب الثانى أن يظل فى البلاط النوبى حيث لقى لدى شكنده حظوة كبرى، فعينه سلحدارا، لكنه انقلب على سيده آخر الأمر وقتله على مائدته، وانتهت المسألة بمقتله هو أيضًا[٤٥].

ويمكن القول أخيرًا إن هذه الحملة قد وطدت سلطان بيبرس فى النوبة توطيدًا تامًا. ويعتبر «فتحه هذه البلاد مما يفوق بها على كل ملك تقدمه»[٤٦]. ويقارن ابن الفرات بين حملة بيبرس هذه وبين ما سبقتها من الحملات الأخرى إلى بلاد النوبة فيقول: «كل هذه غزوات وإنما الفتوح الذى وقع فى زمن الملك الظاهر»[٤٧]. كذلك يلحظ أنه لم ترد فى التقاسيم الإدارية ونظام الكور الذى ذكره القضاعى وابن خرداذبة والمقريزى إشارة إلى بلاد النوبة، وإنما دخل الجزء الشمالى منها فى نطاق هذه التقاسيم منذ عهد بيبرس[٤٨]. ومن ضمن التنظيمات التى وضعت فى عهده لضمان الإشراف على النوبة، إنشاء طريق للبريد يبدأ من قوص، ثم يتشعب شعبتين: إحداهما إلى إسوان والنوبة، والأخرى إلى عيذاب على البحر الأحمر[٤٩].

سياسة السلطان قلاوون

وإذا كان قلاوون قد احتذى سياسة بيبرس فى علاقاته مع المغول والصليبيين.. فإنه قد نهج نهجه أيضًا فيما يتعلق بموقفه من بلاد النوبة، فعمل على تثبيت السيادة المملوكية هناك، والقضاء على الفتن التى قد يثيرها ملوك النوبة. وقد أحبط الأمير علم الدين سنجر المسرورى متولى القاهرة محاولة من هذا النوع، قام بها الملك برك Berek الذى خلف شكنده على العرش[٥٠]. ثم أعقب برك فى حكم النوبة ملك اسمه سمامون[٥١]. وقد عرف بالدهاء وسعة الحيلة، فنكث بالعهود التى ارتبط بها شكنده من التبعية ومداومة إرسال البقط مسانهة، فأعد قلاوون لإخضاعه حملة أخرى على رأسها علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط متولى القاهرة والأمير عز الدين الكورانى. وغادرت الحملة القاهرة سنة ٦٨٦ هـ ـ ١٢٨٧م، وانضمت إليها إمدادات أخرى، أعدها متولى قوص الأمير عز الدين أيدمر السلحدار من أجناد اقليت، ومن عنده من المماليك السلطانية والقرى، وعربان الإقليم من أولاد أبى بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان وأولاد الكنز وبنى هلال وغيرهم[٥٢]. ويجب التنويه هنا بأهمية والى قوص بالنسبة للصعيد وبلاد النوبة، فالمعروف أن مدينة قوص فى العصور الوسطى تعتبر ثالثة مدن القطر المصرى بعد القاهرة والإسكندرية؛ لذلك كانت تسند ولاية الأعمال القوصية إلى واحد من المماليك السلطانية، ممن يوثق بكفايتهم الإدارية والحربية؛ إذ كان على عاتقه الإشراف على الأعراب فى الصعيد، وتجهيز الحملات الذاهبة إلى النوبة أو عيذاب وسواكن وإمدادها بما يلزمها من مؤنة[٥٣].

وهنا يقوم السؤال عن الأسباب التى دعت قلاوون لتجهيز مثل تلك الحملة الكبيرة إلى بلاد النوبة. ويستشف من الحوادث التى أوردها كاترمير ـ من مخطوطة تاريخ قلاوون ـ أن سمامون قد وقع فى نزاع مع مملكة الأبواب المجاورة له فى الجنوب، فلما اشتدت وطأته.. لجأ آدر ملك الأبواب إلى سلطان مصر للتحكيم بينهما، ووصلت رسله إلى القاهرة فى رمضان سنة ٦٨٥ هـ ـ ١٢٨٦م تحمل آيات الولاء والطاعة مشفوعة بالهدايا، فشكت إلى السلطان من

سوء المعاملات التى يلقاها ملك الأبواب من ملك دنقلة. فلما علم سمامون أن سفارة ملك الأبواب قد وصلت إلى مصر، بادر هو أيضًا بإرسال سفارة من قبله لتدافع عن وجهة نظره وتشرح ظروف النزاع ومسبباته حتى لا تقوم البينة على اعتدائه فيحق عليه غضب السلطان، وأتت سفارته بعد وصول سفارة آدر بقليل. وقد استمع قلاوون إلى حجج كل من الطرفين، ولما لم يقتنع بما أدليا به، بعث من قبله رسولا إلى كل من الدولتين؛ ليحقق المسألة فى جوها ومكانها، فاختار علم الدين سنجر المقدمى محققًا لدى ملك الأبواب؛ ليستوضح منه ومن غيره ومن أمراء تلك الجهات جلية المشكلة، كما أوفد إلى سمامون سفيرًا اسمه علم الدين الحصنى لنفس الغرض. وسلك السفير الأول طريق عيذاب والبحر؛ خشية أن يتعرض لأذى ملك دنقلة. وبعد أن أتم المقدمى مهمته أخذ طريقه إلى مصر متجنبًا مملكة دنقلة أيضًا، لكن عيون سمامون تمكنت من القبض عليه، وحاول سمامون قتله، لولا أن حذرته حاشيته من عواقب الإقدام على مثل هذه الفعلة فأطلق سراحه. على أن كاترمير لم يذكر شيئا عن مصير الحصنى، ولعله قد أنهى مهمته وعاد كزميله إلى القاهرة، يحمل نتيجة التحقيق التى جاءت فى جملتها طامة على سمامون، فرأى السلطان أن يجرد حملة لتأديبه وردعه على النحو الذى سلف القول فيه(٥٤).

وانتهز قلاوون تلك الأسباب لإرسال حملة فى ذى الحجة سنة ٦٨٦ هـ ـ ١٢٨٧م، ولما وصلت تلك الحملة إلى أطراف بلاد النوبة الشمالية انقسمت إلى شطرين: أحدهما بقيادة الخياط وقد سار فى الشاطئ الغربى، والشطر الثانى تحت قيادة أيدمر السيفى بالبر الشرقى، وكان معظم القتال من نصيب أيدمر حيث توجد المدن النوبية الكبرى بالبر الشرقى، ومن بينها العاصمة دنقلة. على أن سمامون قرر ألا يلتحم بالجيش المملوكى فى معركة حاسمة إلا فى العاصمة، وكتب إلى جريس صاحب الجبل يأمره بإخلاء البلاد التى تحت يده أمام الجيش الزاحف، الذى صار ينتقل من مرحلة إلى مرحلة، دون أية مقاومة حتى بلغ دنقلة. وهناك وقعت الواقعة التى انجلت عن فرار ملك النوبة، ومقتل عدد جم

من النوبيين والمصريين. ثم ظل أيدمر متتبعًا لملك النوبة ورجاله ينكل بهم حتى سار خمسة عشر يومًا جنوبى دنقلة، لكنه لم يظفر بالملك نفسه، وإنما أسر ابن خالة له وجريس صاحب الجبل. وقد ختمت الحملة أعمالها بتولية ابن أخت سمامون ملكًا على النوبة، وإعادة جريس إلى مكانه بولاية الجبل، وأقيمت إلى جانبهما حامية عسكرية، وتعهد الملك الجديد بإرسال البقط السنوى(٥٥).

وفى سنة ٦٨٧ هـ ـ ١٢٨٨ م وردت كتب المسرورى إلى السلطان على يد رسوله ركن الدين الفارقانى، منبئة بما قام به من أسر وسبى وفتك، وما انعقد له من نصر، فخلع السلطان على الرسول وأعاده إلى النوبة بكتاب إلى الخياط يطلب منه العودة إلى مصر، على أن يترك أيدمر بدنقلة مع بعض الجند والمماليك. ثم جهز السلطان مع البريدية سعد الدين سعد ابن أخت الملك داود، الذى أسر فى حملة النوبة أيام بيبرس وأودع قلعة الجبل(٥٦)، ويظهر من تسميته أنه أسلم. وقبل رحيله أنعم عليه السلطان بسيف مذهب، وقصد من إرساله أن يصبح معينا لأيدمر فى حكم النوبة لخبرته، غير أن السلطان انصرف عن تلك الفكرة، فأمر بتعويق سعد الدين بقوص حيث أقام هناك. وعاد الخياط فعلا من بلاد النوبة بعد أن ترك أيدمر نائبًا للسلطنة بدنقلة. ولما وصل الخياط إلى القاهرة احتفل السلطان بمقدمه واستعرض الغنائم والأسرى، فضلاً عن الجزية التى قام بجمعها الأمير حسام الدين من قبل ديوان النوبة(٥٧). وفرق جانبًا من الأسرى على الأمراء وغيرهم وبيع الجانب الآخر بأثمان بخسة. وقد نال الخياط من عطف السلطان قلاوون الشىء الكثير من الخلع والهدايا، فضلا عن تعيينه مهمندارا.

ثم جاءت رسالة من ملك النوبة إلى الخياط نفسه تفيد بأن النوبيين قد عادوا إلى مدنهم ودساكرهم وشرعوا فى إصلاح ما تخرب من ديارهم، كما وصلته رسالة أخرى من ملك الأبواب يعتذر فيها عن عدم استطاعته المثول أمامه إبان وجوده ببلاده، لانشغاله وقتذاك بتعقب الملك آنى Any ،أحد الحكام النوبيين، الذين فروا من وجه الحملة المصرية. ويبدو أن السبب الحقيقى فى تهرب ملك الأبواب من مقابلة الخياط هو عدم رغبته فى الارتباط معه بمواثيق أو شروط معينة تحتم عليه القيام بالتزامات خاصة للدولة المملوكية.

والخلاصة أن حملة قلاوون ألقت الرعب فى بلاد النوبة وفى نفوس القبائل العربية هنالك، وكفى أنها أوغلت بتلك الجهات «فى بلاد لم يصل إليها جيش الإسكندر ذى القرنين من قبل»[٥٨]. ولم تكد الحال تستقر على النحو السالف حتى ظهر سمامون مرة أخرى، إذ أخذ يعد العدة لاسترجاع ملكه، واستطاع فعلا هزيمة الحامية المملوكية بدنقلة، وانتهت المعركة بفرار ملك النوبة الذى أقامه الجيش المملوكى وكذلك جريس صاحب الجبل إلى القاهرة. فأثار ذلك حنق قلاوون فجهز حملة أخرى لقمع حركة سمامون وعلى رأسها الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار ومعه الأمير قبجاق المنصورى وسيف الدين بكتمر الجوكندار، وعز الدين أيدمر متولى الأعمال القوصية، وبلغت عدة الحملة أربعين ألفًا من أصلب الأمراء وسائر أجناد الأعمال بالوجه القبلى وعربان الوجهين، كما صحب الحملة ملك النوبة وجريس[٥٩]. وامتازت تلك الحملة عن سابقتها بوفرة عدد الحراريق والمراكب الكبرى والصغرى، التى أعدت لحمل الأزواد والزردخاناه حتى بلغت خمسمائة. وقد رحلت تلك الحملة من القاهرة فى شوال سنة ٦٨٨ هـ ـ ١٢٨٩ م، وما كادت تصل إلى ثغر أسوان حتى مات ملك النوبة فجأة ودفن هناك.

ولما طالع الأفرم السلطان بموته بعث إليه بابن أخت آخر للملك داود، وكان معتقلا بقلعة الجبل، فأدرك الحملة قبل رحيل العسكر من أسوان. وقد تبع الجيش نفس الخطة التى سارت عليها حملة قلاوون الأولى، فانقسم إلى قسمين: أحدهما بالشاطئ الغربى بقيادة الأفرم وقبجاق، والآخر على الشاطئ الشرقى. وتقدم الحملة صاحب الجبل جريس مع أولاد الكنز ـ وهم قبيلة عربية مرابطة على تخوم بلاد النوبة ـ وذلك ليطمئنوا أهل البلاد ويأمنوهم ويجهزوا الإقامات للعسكر. وقد اكتفى الجيش المملوكى فى ولاية جريس بما يقدمه مشايخ تلك البلاد وأعيانها من فروض الولاء والطاعة، وذلك رعاية لحق جريس. أما فيما وراء ذلك، فقد أخليت من السكان تنفيذا لمشيئة سمامون، ومع ذلك فقد أحرقت سواقيها وأتلفت زروعها. ولما وصل الجيش إلى دنقلة وجدها خلوا من السكان

أيضًا، وعلم أن الملك قد هرب جنوبًا إلى جزيرة، تبعد عنها مسيرة خمسة عشرة يومًا[٦٠] فتتبعه أيدمر، لكن تمكنه من الفرار إلى مملكة الأبواب، وانفضت عنه فى هذه المرة حاشيته وأتباعه من الأمراء المعروفين باسم السواكره، كما فارقه الأسقف والقس، ومعهم الصليب الفضى الذى يزين تاج الملك. وطلبوا الأمان فأمنهم أيدمر وخلع عليهم وعادوا بصحبة الجيش إلى دنقله. واحتفل بذلك الانتصار فى العاصمة، فزينت الحراريق ولعبت الزراقون بالنفط، ومدت الأسمطة فى كنيسة المسيح، وتوجوا الملك الواصل من القاهرة على المملكة، وحلف هو والرعية على طاعة السلطان كما حدث أيام بيبرس، وتعهد بإرسال البقط، وتركت معه حامية مملوكية بقيادة ركن الدين بيبرس العزى ـ وهو أحد مماليك الأمير عز الدين متولى قوص. وبانتهاء ذلك كله فرغت الحملة من مهمتها وغادرت بلاد النوبة، بعد أن استغرقت أعمالها هنالك ستة أشهر تقريبًا، ووصلت القاهرة[٦١] سنة ٦٨٩ هـ ـ ١٣٨٩ م.

النزاعات الداخلية فى مملكة النوبة وموقف مصر إزاءها

ولم يسدل الستار على قصة سمامون بعد تلك الخاتمة، إذ لم تكد الحملة المصرية تغادر بلاد النوبة، حتى ظهر هذا الملك من جديد على مسرح الحوادث فعاد إلى عاصمة ملكه متخفيًا، وطفق يتعمل السواكرة وأعيان الدولة إلى جانبه. ويظهر من انضمام الأمراء إلى صف ملكهم القديم فى كثير من السهولة واليسر، أن البلاد لم تطمئن كثيرًا إلى السيادة المملوكية، وأنها ما عتمت شديدة الاستمساك بملكها سمامون. وتلا هذا قبض سمامون على بيبرس العزى وإرساله إلى مصر دون أن يلحق به أذى، وذلك راجع إلى عزم سمامون على تحسين علاقاته بدولة المماليك.

ولكنه نكل بالملك النوبى الذى أقيم بدله، ومثل به تمثيلا مروعًا كما قتل جريس أيضًا[٦٢]، ثم بعث إلى قلاوون يستعطفه ويسأله المغفرة، وتعهد بتأدية البقط، وأظهر ولاءه بما هادى به السلطان من الرقيق والتقادم. وقبل قلاوون ما تعهد به ملك النوبة من شروط وأقره على بلاده، وحلفه على يمين مشابهة لتلك

التى حلف عليها شكنده فى صيغتها ومضمونها[٦٣]. وقد أورد النويرى السبب الذى ألجأ قلاوون إلى قبول الأمر الواقع فى النوبة حينئذ[٦٤]؛ إذ كان السلطان فى ذلك الوقت يتأهب للاستيلاء على عكا؛ لانتفاض أهلها على تجار المسلمين وقتلهم، فأصبح إعداد العدة لذلك المشروع مشغلة السلطان. ويلاحظ أن موقف قلاوون من بلاد النوبة مشابه لموقف بيبرس؛ إذ اعتبرها ـ أو على الأقل الجزء الشمالى منها ـ قسما داخلا فى صميم الحدود المصرية، ودليل ذلك ما ورد فى العهد الذى كتبه لابنه الملك الصالح علاء الدين[٦٥]، حين فوض إليه ولاية العهد وكفالة السلطنة فى سائر أقاليم الدولة، ومن بينها «مملكة النوبة وما احتوت عليه»[٦٦].

وقد طال حكم سمامون ببلاد النوبة حتى عهد السلطان زين الدين المنصورى، ولكنه لم يكن عند العهد الذى قطعه على نفسه بصدد علاقاته بالسلطنة المملوكية، إذ بمجرد وفاة السلطان قلاوون تخلف عن إرسال البقط لسنة ٦٩٠ هـ ـ ١٢٩١م، وبعث إلى السلطان الأشرف خليل فى صفر ٦٩١ هـ ـ ١٢٩١ م يعتذر له عن تأخير البقط، متعللا بما أصاب بلاده من التخريب نتيجة «دخول العساكر الإسلامية إليها كرة بعد كرة» وبأن إغارات الملك أدر صاحب الأبواب قد «زادت البلاد خرابًا إلى خرابها، وذهابًا إلى ذهابها، وسوادًا إلى سوادها، وفسادًا إلى فسادها»[٦٧]. ولكن السلطان لم يقبل منه تلك المعذرة فأنفذ إليه الرسل منذرة مهددة، فلما سأل الأمان أرسل إليه. كما شملت الرعاية السلطانية والدته وعمته وبقية أهله المقيمين رهائن فى دور الضيافة بالقاهرة. وإزاء ذلك سير سمامون أخاه المسمى بالبرسى وجريس صاحب الجبل، ومعهما رسالة استعطاف للسلطان يطلب فيها إنفاذ والدته إليه؛ لأن «ملوك النوبة ما يدبرهم إلا النساء» كما أكثر الشكوى من ملك الأبواب الذى زعم أنه اعتدى على الهدية التى شرع فى إعدادها للسلطان. ويظهر أن العداوة كانت متحكمة إذ ذلك بين ملك دنقلة وصاحب الأبواب؛ لأن سمامون أنبأ السلطان خليل بن قلاوون فى الرسالة نفسها باحتمال وصول رسل ملك الأبواب، ورجاه ألا يفسح لمقالتهم

صدره[٦٨]. وأتت مع السفارة جملة هدايا من الرقيق والجمال والتمر والشب والسنباذج وغيرها[٦٩].

وخلف سمامون على عرش النوبة الملك إياى[٧٠]، فاجترأ صاحب الأبواب على حدود مملكته، فلم ير بُدًّا من اقتفاء سياسة سلفه فى مثل هذه الأزمة، وهى الالتجاء إلى السلطان المملوكى، فقدم بنفسه إلى مصر ٧٥٤ هـ ـ ١٣٠٤ م يحمل الهدايا المعتادة، وسأل السلطان الناصر محمدًا الغوث والمدد. وقد أمده الناصر فعلا بتجريدة حربية بقيادة والى قوص سيف الدين طغصبا، وجماعة «الوافدية» من التتر، وعدة من أجناد الحلقة، وأجناد الولاة بالوجه القبلى، وطائفة كبيرة من العربان، كما هو المألوف فى تكوين الحملات الذاهبة إلى بلاد النوبة. وتمكن إياى بفضل تلك المعونة من تثبيت أقدامه فى بلاده، ودفع عادية ملك الأبواب، ثم عاد والى قوص ٧٠٥ هـ ـ ١٣٠٥ م ببقية الحملة التى قاست الأمرَّين فى تلك الجهات بسبب قلة الزاد والمئونة[٧١]؛ واستمر حكم إياى حتى اغتاله أخوه كربيس ٧١١ هـ ـ ١٣١١م فاعتلى العرش مكانه[٧٢].

ولم يكد يستقر الأمر لكربيس فى بلاد النوبة، حتى تنكر للسلطنة المملوكية وامتنع فى سنة ٧١٦ هـ ـ ١٣١٦ م عن أداء المقرر عليه من البقط[٧٣]، فلم يتوان الناصر محمد فى أن يجرد له حملة استغرق إعدادها أكثر من شهر. وتدل شخصيات الأمراء التى رسم بإلقاء مهام الحملة إليها على رغبة الناصر فى القضاء المبرم على مصدر ذلك الاضطراب الدائم فى الحدود الجنوبية. وبرزت الحملة من القاهرة فى ٢٣ شعبان ٧١٦ هـ ـ ١٣١٦ م، واستصحبت معها سيف الدين عبد الله برسنبو النوبى، وهو ابن أخت الملك داود[٧٤]. ويظهر أنه أسر فى إحدى الحملات المملوكية السابقة، وربى فى البيت السلطانى فى جملة المماليك السلطانية، واعتنق الإسلام، وأرسل مع الحملة ليكون بديلا من كربيس على عرش النوبة. وما كاد كربيس يسمع بنبأ الحملة المملوكية، حتى سارع إلى إيفاد ابن أخته، كنز الدولة بن شجاع الدين، إلى القاهرة؛ ليتوسل لدى السلطان فى الحيلولة دون إرسال عبد الله برسنبو، وإقناع السلطان بإقامة كنز الدولة ملكًا

على النوبة، إذا كان مقصد السلطان إقامة ملك مسلم على تلك الجهات. لكن كنز الدولة أخفق فى مهمته، بل أمر السلطان باحتجازه ومنعه من العودة إلى بلاده فاستقر بالقاهرة.

أما الحملة.. فإنها أوغلت فى النوبة حتى دنقلة، ولم يحاول كربيس أى نوع من المقاومة، بل هرب هو وأخوه إبرام جنوبًا، حتى انتهى بهما المطاف إلى مملكة الأبواب على اعتبار أنها أهون الشرين. لكنْ ملكها لم يلبث أن قبض عليهما، رغبة منه فى التقرب لدولة المماليك، واحترز على الأسيرين فى جزيرة مجاورة، وبعث إلى عز الدين جيهاركس مقدم العسكر يخبره بذلك. فذهبت طائفة من رجال الحلقة لتسلمهما، وأرسلا إلى القاهرة حيث اعتقلا «تحت الاحتياط» وانتهى ذلك كله بتتويج عبد الله برسنبو ملكا على النوبة، وهو أول ملك مسلم أقيم بتلك البلاد من قِبَل سلاطين المماليك. وعاد العسكر إلى القاهرة بعد ذلك فبلغها فى جمادى الأولى سنة ٧١٧ هـ ـ ١٣١٧ م . وكانت تلك الحملات المملوكية بداية للحكم الإسلامى وانتشار الإسلام فى مملكة النوبة.

أما كنز الدولة.. فقد اتخذ من وصول ملك النوبة وأخيه إلى القاهرة حجة ومبررًا لإطلاق سراحه، وأذن له السلطان الناصر محمد فعلا بالذهاب إلى ثغر أسوان، على شريطة أن يجمع ما يتصل لديه من خراج هذا الثغر، غير أن ملك أخواله استهواه، فواصل سيره حتى دنقلة واستقبله أهلها استقبالاً حافلا وحيوه بتحية الملك، وهى «موشاى موشاى» وخلعوا برسنبو. وكان السر فى ذلك الانقلاب أن برسنبو قد أحدث بالبلاد تغييرات كثيرة فى نظمها وأحوالها، مما لم تألفه فى عهود ملوكها السالفين، ثم إنه طغى وتكبر بعد ظفره بأرض النوبة على كره من أهلها. أمر كنز الدولة بقتل برسنبو، فلما علم السلطان بمقتله أمر بالإفراج عن إبرام، واتفق معه على أن يوقع بابن أخته كنز الدولة، ويبعث به إليه مقابل أن يصفح السلطان عن أخيه كربيس، ويملكه على النوبة[٧٥]. وما إن وصل إبرام إلى دنقلة حتى سلمه كنز الدولة وديعة الملك واندرج فى خدمته. ولم يكن لدى كنز الدولة ما يثير وساوسه من ناحية إبرام فاطمأن إليه، وصحبه

فى خروجه لتمهيد الأمر بالنواحى الشمالية من بلاد النوبة. ويظهر أن ذلك الخروج كان أمرًا مدبرًا، إذ بمجرد وصول إبرام إلى الدر قبض على كنز الدولة وأزمع إرساله إلى مصر، ولم يحل دون تنفيذ هذا المشروع سوى مرض عضال نزل بإبرام فأهلكه بعد ثلاثة أيام. ونجا كنز الدولة على نحو لم يكن فى الحسبان، وانعقد له أمر النوبة، وتوج ملكًا بالفعل على دنقلة، واستقل بالمملكة وضم إليه العرب، واستعان بهم على من ناوأه(٧٦).

وقد تقبل السلطان الناصر ما آل إليه الحال فى بلاد النوبة على مضض. ويظهر أن ثمة مشاغل قد صرفته عن الالتفات إليها، بيد أنه لم يمهل كنز الدولة إلا رويدا، فجهز فى ذى الحجة ٧٢٣ هـ - ١٣٢٣ م حملة كان من بين قوادها الأمير طقصبا وعلاء الدين على بن قراسنقر، وسيف الدين أيدمر الكبكى، وخمسمائة من أجناد الحلقة. وبعث معهم كربيس ليكون بدلا من كنز الدولة على عرش النوبة. وقد نجحت الحملة فى تلك المهمة، إلا أن كربيس لم يهنأ طويلا بالملك؛ إذ بمجرد عودة الحملة المملوكية لمصر أعد كنز الدولة عدته للمناوأة، وتمكن فعلا من استرداد العرش(٧٧). ومن المحتمل أن يكون كنز الدولة قد تزوج من بيت الملك القديم بدنقلة ليثبت دعائم سلطانه هناك(٧٨). وعلى هذا النحو اضطربت أحوال النوبة، وبدأت تسيطر عليها قبيلة بنى كنز وغيرها من القبائل العربية الأخرى، ولم يعد لمملكة النوبة المسيحية كيان حقيقى، وانتهى الأمر بتداعيها تداعيًا صامتًا.

انهيار مملكة النوبة

وهنا يلاحظ أنه منذ أيام عمرو بن العاص حتى عصر قلاوون وابنه الناصر، لم تأت التجريدات العسكرية التى بعثت إلى بلاد النوبة بما علق عليها من آمال، فلم يحدث أن استطاعت إحداها القضاء على مملكة النوبة المسيحية وضمها إلى مصر نهائيًا، بل أقصى ما كانت تستطيعه هو الأسر، والتخريب، والاستيلاء على الغنائم، أو مساعدة أحد الطامعين فى العرش ضد غريمه(٧٩). ويلاحظ أيضًا أن

التخريب كان على أشده فى المنطقة الشمالية من النوبة حتى الشلال الثالث، وأن الحملات الإسلامية لم تستطع أن تتوغل جنوبى ذلك كثيراً[٨٠]، وسبب ذلك كله الظروف الجغرافية والأحوال المناخية التى اتصفت بها بلاد النوبة؛ فتضاريسها تفسر إمكان تكرار الظاهرة الخاصة بهرب ملوك النوبة، واختفائهم عن الحملات المملوكية مدى حين، كما تفسر أحوالها المناخية عدم استطاعة تلك الحملات المكث هنالك؛ إذ المعروف أنها كانت تقاسى شدة وأهوالا بسبب جدب البلاد وقلة الزاد.

والخلاصة أن المسلمين لم يصادفوا بتلك الجهات نجاحًا أحسن مما صادفه الرومان من قبل. ومن ثم يمكن القول بأن الحملات الحربية المملوكية لم تكن العامل الأول في إسقاط مملكة النوبة بدنقلة، بل كل ما استطاعته هو إحداث التفكك والاضطراب في عراها. إنما يمكن أن يرد انهيار تلك المملكة نهائيا إلى العوامل الآتية:

أولاً ـ النزاع الطويل بين مملكتي دنقلة والأبواب. وقد استحكمت حلقاته إلى درجة ألجاتها للاحتكام إلى السلطان المملوكي في كثير من الأحايين، كما حدث في سنتي ١٢٩١م و ١٣٠٤م مثلا.

ثانياً ـ الاضطراب القائم فى صميم مملكة دنقلة؛ بسبب المنافسة على العرش بين الإخوة وأبناء الأخوات، وقد توسلت الدولة المملوكية بذلك؛ لتفكك من أواصر دنقلة وتفرض لنفسها سلطانًا ونفوذًا.

ثالثاً ـ السطوة التى فرضتها لنفسها القبائل العربية المتاخمة لبلاد النوبة، وخاصة قبيلة بني كنز، التى استطاعت أن تتدخل في شئون المملكة وتستأثر بعرشها آخر الأمر.

رابعاً ـ فساد الحالة التي آلت إليها الكنيسة النوبية؛ إذ تأسنت أحوالها بسبب إهمال بطركية الإسكندرية لشئونها منذ عهد البطرك كيرلس (١٢٣٥ ـ ١٢٥٠م)؛ فقد انقطع إرسال الأساقفة إليها كلما احتاجت، ودبت المشاحنات بين رجال

الكنيسة أنفسهم من ناحية، واضطرمت الأحن بينهم وبين السلطنة الزمنية من ناحية أخرى، وبذلك فقدت مملكة النوبة المسيحية عاملا من عوامل الحيوية وعنصراً من عناصر البقاء.

ومن جراء ذلك كله أخذت مملكة النوبة المسيحية فى التداعى، وتفككت إلى نحو من خمسين قسمًا خاضعة لأربع رئاسات عليا. وقد ذكر Budge أن امرأة اسمها غانا Ghana استطاعت أن تتولى زمام إحدى هذه الرئاسات[٨٢]. وبينما ذهبت مملكة دنقلة المسيحية ـ منذ أوائل النصف الثانى من القرن الرابع عشر ـ إذ بمملكة علوة تظل قائمة فى الجنوب كمملكة مسيحية مستقلة، وأدلة ذلك مارسمه الرحالة المعاصرون من خرائط، ومنها: الخريطة التى رسمتها إنجلين دلسرت Angeline Dulcert عام ١٣٣٩ م، وخريطة بتسجانى pizzigani عام ١٣٦٧م، والأطلس القطلانى الذى وضع لشارل الخامس سنة ١٤١٣م. ويلحظ القارئ للخريطة الأخيرة أنه يوجد فى موضع مملكة علوة علامة الصليب البيزنطى، أما فى المنطقة الشمالية ـ حيث مملكة مقرة ـ فتوجد راية فى وسطها هلال، وإلى جانبها مكتوب مملكة إسلامية Rex Saracenua، وهذا دليل على أن ملوكًا مسلمين أضحوا يحكمون هذه المنطقة، وهم زعماء القبائل العربية من بنى كنز وجهينة وعكرمة وغيرها[٨٤].

أما مملكة علوة.. فقد لقيت نهايتها على يد قبائل الفونج الزنجية، التى تزعم أنها من سلائل بنى أمية الذين هاجروا إلى السودان؛ فراراً من اضطهاد العباسيين لهم فى القرن الثامن الميلادى،[٨٥]. وقد اتحدت قبائل الفونج مع عرب جهينة الذين استقروا ببلاد البجة وشمالى النوبة منذ القرن التاسع الميلادى، وتوغلوا جنوبًا بزعامة شيخ الفونج عبد الله جماع، حتى أطبقوا على مملكة علوة، فشتتوا شملها وأخربوا عاصمتها خرابًا غدا مضرب الأمثال هناك. وتأسست بذلك مملكة الفونج التى كان أول ملوكها عمارة دنقس[٨٦] (٩١٠ هـ ـ ١٥٠٥م)، وعاصمتها مدينة سنار، وتعرف هذه المملكة أحيانًا باسم مملكة سنار.

أما القسم الغربى من بلاد النوبة، وهو المعروف اليوم باسم مديريتى كردفان ودارفور. . فقد ظهرت فيه مملكة دارفور الإسلامية، وأول حكامها سليمان[٨٧] Solun Sliman (٨٤٨ ـ ٨٨٠ هـ ـ ١٤٤٤ ـ ١٤٧٥م).

أما بلاد النوبة الشمالية. . فليس فى أخبارها بعد أن تقسمت شيعًا بين القبائل العربية شىء ذو غناء، إذ أضحت مسرحًا للاضطراب والفتن التى نشبت بين القبائل العربية من وقت لآخر، وأشهر تلك الفتن ما حدث فى سنوات ١٣٧٨، ١٣٩٥، ١٣٩٧م. ولم يكن للسلطنة المملوكية نفوذ كبير بين تلك القبائل التى استمرت فى عيشها، حتى وقعت مصر بأسرها تحت الحكم العثمانى سنة ١٥١٧م؛ إذ أرسل السلطان سليم قائده حسن قوسى إلى بلاد النوبة سنة ١٥٢٠م، وتمكن من فتحها وإقامة حاميات عسكرية بها[٨٨]. وخاصة فى أبريم والدر وجزيرة سای. وقد عرف رجال تلك الحاميات باسم الكشاف، ولاتزال فى بلاد النوبة قبيلة الكشاف، حتى اليوم تحتفظ بمميزاتها الجنسية، رغم اختلاطها بالقبائل المجاورة[٨٩].

غير أن الفتح العثمانى للنوبة لم يمتد جنوبًا، ولم يصل إلى مملكة الفونج. ويقال إن السلطان سليمًا لم يقدم على فتحها؛ لأن عمارة دنقس ملكها قد بعث إليه بكتاب ذكر فيه أنه ملك مسلم مثله ولا مبرر لغزو بلاده، كما أرسل كتابًا بأنساب القبائل العربية التى فى مملكته، جمعه له الإمام السمرقندى أحد علماء سنار[٩٠]. وبذلك انقسمت بلاد النوبة إلى قسمين: الكشاف فى الشمال حتى الشلال الثالث، والفونج فى جنوب ذلك حتى الشلال الرابع تقريبًا[٩١]. واستمر الحال على ذلك، حتى الفتح المصرى للسودان سنة ١٨٢٠م؛ حيث أخضع محمد على باشا جهات السودان لحكمه. أما دارفور. . فقد استطاع الخديو إسماعيل أن يضمها إلى امبراطوريته الإفريقية سنة ١٨٧٥م.

القبائل العربية فى النوبة والسودان

لعبت القبائل العربية الضاربة على تخوم بلاد النوبة، دورًا كبيرًا فى إسقاط مملكة دنقلة. ويجدر بنا هنا أن نستعرض هذه القبائل؛ لنتبين حقيقة ما ساهمت

به فى ذلك الصدد. والمعروف أنه بمجرد أن أصبحت مصر ولاية إسلامية هاجرت إليها بعض القبائل العربية، وكان من أسبقها هجرة قبيلة جهينة، وهى يمنية الأصل، وتنتسب إلى جهينة بن زيد بن ليث بن قضاعة، ومنازلها الأصلية فى الحجاز، وتاريخ وفودها إلى مصر هو القرن الهجرى الأول. وقد استقر بها المقام بأواسط الصعيد، ثم نزحت جنوبًا إلى أسوان وبلاد النوبة بعد ذلك بقرنين تقريبًا[٩٢]. وتلا هذه القبيلة فى هجرتها إلى مصر قبيلة بنى كنز، وينتمى أصلها إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، ومنازلها باليمامة، وكان وفودها إلى مصر فى خلافة المتوكل العباسى، وذلك فى بضع وأربعين ومائتين للهجرة؛ حيث انتشرت بأعالى الصعيد، وسكنت بيوت الشعر فى براريها الجنوبية على تخوم بلاد النوبة. ثم اختلطت ربيعة بقبائل البجة، وأصهروا إليهم وأفادوا كثيرًا مما بأرضهم من معدن الذهب، وخاصة فى منطقة العلاقى؛ مما أدى إلى تضخم ثرواتهم. وقد صارت رئاسة ربيعة ـ فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ـ إلى أبى المكارم هبة الله بن الشيخ عبد الله المعروف بالأهوج المطاع. وسبب تسميته كنز الدولة أنه استطاع أن يظفر بأبى ركوة، الذى ثار على الحاكم وبعث به إليه، فكافأه الحاكم على ذلك بلقب كنز الدولة، الذى أضحى نعتًا لكل من يتولى رئاسة هذه القبيلة. بل إن القبيلة نسبت إليه وغدت تعرف بقبيلة بنى كنز[٩٣] ومن المشهور أن أحد زعماء هذه القبيلة كان من الرؤوس المدبرة للمؤامرة، التى قصد بها إعادة الدولة الفاطمية وإقامة الأمير داود بن العاضد الفاطمى خليفة[٩٤]، وهى المؤامرة التى استطاع صلاح الدين قمعها، وقتل زعيمها من بنى كنز وآلافًا من أتباعه السودانيين سنة ١١٧٦ م. ومع ذلك.. فقد تمكن بنو كنز من تكوين أرستقراطية حربية بثغر أسوان وشمالى النوبة، وقد استمر نفوذ تلك الأرستقراطية العربية طوال عصر المماليك.

وإلى جانب هاتين القبيلتين.. نزحت إلى بلاد النوبة والسودان ـ فى فترات مختلفة ـ قبيلة فزارة التى هاجرت إلى مصر فى القرن الحادى عشر الميلادى، ثم أخذت طريقها إلى الحدود الجنوبية بعد ذلك. أضف إلى هذا بعض القبائل الأخرى، مثل:

بنى هلال وهوارة، التى تتمثل بالسودان الحالى فى قبائل البقارة والهوارير والمعاقلة وغيرها(٩٥).

ويجمل بالباحث هنا أن يتبين الأسباب التى دفعت هذه القبائل؛ للنزوح إلى المناطق الجنوبية، إذ يمكن حصرها فى أن بلاد النوبة والسودان شبيهة إلى حد كبير فى ظروفها المناخية ببلاد العرب، بعكس بيئة القطر المصرى التى لا تلائم ظروف الحياة فيه القبائل المتبدية. وما السودان الأوسط وبلاد العرب سوى منطقة جغرافية واحدة، يفصل بينهما البحر الأحمر، فالأمطار بالسودان أوفر والمراعى أخصب؛ مما يسهل عناصر الحياة لهذه القبائل هناك. ثم إن البحث عن الذهب والزمرد استهوى أفئدة القبائل العربية فطاب لهم المقام هنالك. وقد شهد القرن التاسع الهجرى ازديادًا ملحوظًا فى هجرة القبائل العربية نحو الجنوب، ولم يهتم سلاطين المماليك بأمر العرب لعدم انتفاع الدولة بهم، فالمماليك أنفسهم طبقة حربية ممتازة لا تقيم للبدو وزنًا، فلجأ هؤلاء ـ تبريرًا لكيانهم داخل الدولة المملوكية ـ إلى إحداث الاضطراب والشغب كلما واتتهم الفرصة، وأدت تلك الاضطرابات إلى تشريد الكثير من تلك العناصر جنوبًا. هذا.. وقد أرادت القبائل العربية بنزوحها جنوبًا أن تتخلص من نفوذ الحكومة القائمة بمصر؛ إذ الواقع أن دولة المماليك ـ على وجه خاص ـ كانت تسوم تلك القبائل أحمالا ثقالا من الضرائب والأعباء الأخرى. فلا عجب إذًا أن يصبح الجزء الجنوبى من الوجه القبلى والشمالى من بلاد النوبة محطًا لآمال المهاجرين، عندما رأوا أن الحياة فى مصر نفسها عبء لا يحتمل.

الشىء الهام هنا إبراز ما للقبائل العربية من أثر فى أحوال بلاد النوبة فى عصر المماليك. وقد سبق القول أن كلا من بيبرس وقلاوون قد استخدم الأعراب فى حملاته إلى بلاد النوبة. وقد رميا بذلك إلى ضرب عصفورين بحجر واحد، فاستعان كل منهما بالأعراب فى اقتحام تلك الجهات لمعرفتهم بها، واستطابتهم لمغانمها وأسلابها، فضلاً عما فى ذلك من وسيلة للتخلص من شر عدد كبير

منهم فى المعارك التى تنشب هناك. ويرى ڤيت أن تلك الحملات كانت فى نفس الآن، أداة من أدوات الإرهاب للقبائل العربية المنتشرة فى الصعيد(٩٦).

وقد ساهمت قبيلة بنى كنز بنصيب كبير فى الحملات المملوكية إلى بلاد النوبة كما سبقت الإشارة، فكانت تقوم بتمهيد الطريق للجيش، وتأخذ على عاتقها إمداده بالزاد، وتجهيز الإقامات، وتقفير المراكب كلما أصابها عطب. وكثيرًا ما تعطلت حركات النقل فى النيل؛ بسبب تسويف أولاد الكنز فى تقفير المراكب. وكذلك استعانت الدولة بهم أيضًا فى الإغارة على بلاد النوبة ومدافعة ملوكها عن الحدود الجنوبية، حتى صارت تلك القبيلة حامية لثغر أسوان، وانتهت بالاستيلاء على زمام الأمر فيه، حين طردت والى أسوان سنة ٧٩٠ هـ ـ ١٣٨٨م، ولم يعد للسلطنة المملوكية نفوذ به من بعد سنة ٨٠٦ هـ ـ ١٤٠٤م(٩٧).

ومن ثم.. أخذ نفوذ هذه القبيلة يعظم تدريجيًا باتساع أحوالها وكثرة نفرها، فانتشرت جنوبًا ببلاد النوبة واستوطنت بها وعاثت فيها فسادًا. وعجز ملوك دنقلة عن كبح جماحها، فلجئوا إلى مصانعتها بالتصاهر، ونتج عن ذلك أن صار لبعض أبناء الكنز وجهينة الحق فى اعتلاء عرش النوبة، وتم لهم ذلك فعلا بحسب عادة النوبيين فى الوراثة عن طريق الأم(٩٨). وهكذا.. تمكن أبناء الكنز أخر الأمر من القضاء على البيت النوبى المسيحى القديم.

على أن سيطرة القبائل العربية فى بلاد النوبة، وانتهاء دولة دنقلة المسيحية بموت كرنبس لم يكن معناه أن تقوم هناك دولة منظمة، بل اضطرب أمرها زمنًا ما؛ بسبب التنافس بين زعماء القبائل العربية، الذين لم يحسنوا سياسة الملك، ولم ينقد بعضهم إلى بعض، فصاروا شيعًا ولم يبق لبلادهم رسم للملك، وإنما ظلوا حتى الفتح العثمانى رحالة بادية يتبعون مواقع المطر شأن بوادى الأعراب، ولم يبق فى بلادهم رسم للملك؛ لما أحالته صيغة البداوة العربية من صيغتهم بالخلطة والالتحام حسب تعبير ابن خلدون(٩٩). ثم أحدثت تلك القبائل فى القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر جرحًا لا يندمل فى جنب الدولة المملوكية؛ بسبب عبثها فى المناطق الجنوبية وفى عيذاب، وامتد هذا العبث حتى قوص والواحات الخارجة شمالا(١٠٠).

ولقى ولاة أسوان عنتا فى محاولة إخضاعهم، ومسهم فى سبيل ذلك كثير من الضير والأذى. فأشار ابن الفرات مثلاً - فى حوادث جمادى الآخرة ٧٩٨ هـ - ١٣٩٥م - إلى أن عرب الأحامدة قد تآمروا على المقر السيفى قطلويفا الطشتمرى نائب السلطنة بالوجه القبلى وقتلوه، ثم انقضوا على ثغر أسوان بالاتفاق مع أولاد الكنز فوقع فى قبضتهم، وخشى والى أسوان على نفسه ففر إلى بلد النوبة لائذًا بملكها ناصر الدين النوبي. ولذا أرسل السلطان برقوق نائب السلطنة الجديد بالوجه القبلى عمر بن إلياس ليتعقب هؤلاء العرب، كما طلب إلى أمير عرب هوارة عمر بن عبد العزيز أن يمده بنجدة، فبعث إليه ابنه فى مائتى فارس، ساروا إلى ثغر أسوان مع عمر بن إلياس، ثم توغلوا جنوبًا حتى التقوا بناصر الدين النوبى، غير أنهم لم يعثروا على أحد ممن جاءوا فى طلبهم(١٠١).

ومما يستحق التنويه فى هذا المقام أن مملكة النوبة المسيحية ظلت ردحًا من الزمن مانعًا حاجزًا، دون توغل القبائل العربية فى النوبة والسودان، فبمجرد أن انفرط عقد تلك الدولة.. انثالت تلك القبائل عن طريق الدروب الصحراوية إلى أنحاء النوبة، بيد أن قبيلة بنى كنز فقدت مالها من سلطان فى منطقة أسوان وشمالى النوبة، فى القرن الخامس عشر الميلادى بسبب هجرة قبيلة هوارة من أعمال البحيرة إلى منطقة جرجا، ومنها إلى أسوان وما يليها من أرض النوبة، فاستطاعت إزاحتها عن ثغر أسوان سنة ٨١٥ هـ - ١٤١٢م(١٠٢). ولهذا.. انتشرت قبيلة بنى كنز حتى وادى حلفا جنوبًا، وظلت الحروب والمعارك سجالا بين هوارة والكنز حتى الفتح العثمانى. ولاتزال بقايا بنى كنز ممثلة حتى الآن فى النوبيين المعروفين باسم الكنوز، الذين يقطنون المنطقة الواقعة بين أسوان وكرسكو.

أما اختلاط القبائل العربية بسكان البلاد الأصليين فى النوبة.. فقد أدى إلى انتشار الإسلام بتلك الجهات انتشارًا سريعًا، واضطر من استمسك بمسيحيته إلى الالتجاء لمناطق الهضاب الغربية فى كردفان ودارفور، أو إلى مملكة علوة فى الجنوب، قبل أن يقضى عليها الفونج بمساعدة القبائل العربية، التى وصلت فى انتشارها جنوبًا حتى حدود تلك المملكة(١٠٣). والظاهر أنه بمجرد أن اعتلى عرش

النوبة ملوك مسلمون. . أصبح انتشار الإسلام ظاهرة ملحوظة بين النوبيين. وكان عامل التصاهر بين النوبيين والقبائل العربية أقوى الأسباب لتلك الظاهرة، واستتبع ذلك انقطاع الجزية والبقط بدخول ملوكها ورعيتهم فى الدين الإسلامى(١٠٤).

والخلاصة أن مملكة النوبة المسيحية كانت من أهم ممالك «الطرف الجنوبى»، التى راسلها ديوان الإنشاء بمصر، وآية ذلك الأخبار المختلفة التى أوردها القلقشندى عن تلك المملكة. ومع ذلك. . فإن المراجع المتداولة فى هذا البحث لم تذكر نصًا لمكاتبة كاملة بين سلاطين مصر وملوك النوبة، رغم ما جاء بها من أخبار التراسل بين الجانبين فى العصور الوسطى. وقد وضع ديوان الإنشاء ملك دنقلة المسيحى فى نفس المرتبة التى لملك سيس، ملك ارمينيا؛ إذ ذكر العمرى أن صدر المكاتبة لصاحب دنقلة هو بعينه صدر المكاتبة إلى صاحب سيس. ومن ضمن صيغته «إلى حضرة الملك الجليل، الباسل الهمام، السميدع الضرغام، فخر الملة المسيحية، ذخر الأمة النصرانية، عماد بنى المعمودية، صديق الملوك والسلاطين(١٠٥).

ومنه يستدل أيضًا على أن الوضع الدبلوماتى لصاحب دنقلة هو نفس الوضع الذى لملك الحبشة أيضًا، وذلك للاتفاق الكبير بين صدر المكاتبة لكل منهما(١٠٦). وتتفق صيغة المكاتبة إلى صاحب أرجون يعقوب الثانى ملك إشبيلية معهما أيضًا، كما ورد فى المكاتبة التى تسود تلك بين الناصر محمد وبينه(١٠٧). ويلاحظ هنا أيضًا أن العمرى كاتب السر بديوان الإنشاء يطلق على ملوك النصارى فى عصره اسم «ملوك عباد الصليب»، وتختتم المراسلات إلى ملوك النوبة كما هو المعتاد بدعاء مناسب، مثل: «وفقه الله لطاعة يكنفه ذمامها، ويقيه مصارع السوء التزامها، وتجرى له بالسلامة فى النفس والمال أحكامها» ومن هذه الأدعية أيضًا «أبقاه الله لولاء يبديه، وفرض من الخدمة يؤديه، ودين فى ذمته من القطيعة يقوم به مع طرائف ما يهديه(١٠٨)»

والخلاصة أن مضمون هذه الأدعية هو تحذير ملك النوبة من إثارة القلاقل فى الحدود الجنوبية، والاستمرار فى تأدية البقط، والإذعان بالطاعة والولاء خشية سطوة الجيش المملوكى.

أما القلقشندى.. فقد ذكر أنه تتابع على النوبة فى عصره ملوك مسلمون ومسيحيون، وذكر أن تعريف صاحب دنقلة هو «النائب بدنقلة» والمكاتبة إليه، إن كان مسيحيًا إلى النائب الجليل المبجل مجد الملة المسيحية وكبير الطائفة الصليبية، غرس الملوك والسلاطين»[١٠٩]، وإن كان مسلمًا صدرت مكاتبته بعبارة «إلى المجلس الجليل الكبير ... عمدة الملوك والسلاطين»[١١٠]. وفى هذه الصيغ، وفى تعريف صاحب دنقلة باسم النائب.. ما يدل على تداعى مملكة دنقلة، وتدخل سلاطين المماليك تدخلا فعليًا فى شئونها. وقد بدأ ذلك فعلا منذ عصر الناصر محمد، فقد جاء فى مسالك الأبصار أن صاحب النوبة «رعية من رعايا مصر... يخطب ببلاده لخليفة العصر وصاحب مصر»، كما أصبح «لايملك بها إلا ملك من الأبواب السلطانية بمصر»[١١١].

كذلك.. صدرت لأمراء العربان ببلاد النوبة مكاتبات من ديوان الإنشاء بمصر، وأشهر هؤلاء فى عصر الناصر محمد الأمير ناصر الدين، عمر بن فضل بن مالك، وكذلك الأميران عباد بن قاسم، وكمال بن سوار، إلى جانب جنيد شيخ الجوابرة، وشريف شيخ النمانمة[١١٢]، وكان معظم تلك المكاتبات فيما بين سنة ٧٦٣ هـ ـ ٧٦٩ هـ ـ ١٣٦١ ـ ١٣٦٧م.

قبائل البجاة:

على أنه من بين القبائل التى اهتمت بها السلطنة المملوكية، قبيلة البجاة الضاربة فى منطقة الصحراء الشرقية، الممتدة من القصير إلى سواكن؛ لما ببلادهم من الذهب والفضة. وكان أول من اهتم بشأنها والى مصر عبيد الله بن الحبحاب، فهادنهم على ألا يتعرضوا للمسلمين بأذى، ولكنهم رغم ذلك لم يكفوا شرهم عمن وصلت إليه أيديهم من المسلمين، فاضطر والى مصر عبد الله بن

الجهم فى خلافة المأمون إلى عقد معاهدة مع ملكهم كنون، على ألا يمنع العمال من استخراج الذهب، وألا يمسوا التجار بسوء أثناء مرورهم ببلادهم. واستدفع رئيسهم هذا إتاوة سنوية قدرها مائة من الإبل وثلثمائة دينار(١١٣). كذلك قاسى والى مصر محمد بن عبد الله القمى أهوالا فى محاربة هذه القبيلة، فى خلافة المتوكل على الله العباسى.

وقد ظل استخراج معدن الذهب والفضة من تلك المنطقة الصحراوية منبعًا من منابع الثروة المصرية. وذكر المسعودى أن ما يستخرج من هنالك، يبعث به إلى والى الفسطاط حيث يتولى أمره ديوان خاص. وقد اتخذ هذا الديوان ضمانات كافية للاحتراز على هذين المعدنين «فيفتش الفعلة عند الخروج من كل يوم حتى تفتش عوراتهم»(١١٤)، ولكن عناية الحكومة باستغلال المعادن أخذت تتناقص تدريجيًا منذ أوائل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)، وذلك بسبب الخوف من غوائل العربان الذين انتشروا هناك، هذا بالإضافة إلى أن تقرير أحد أبناء الكنز ـ الذى كلفته الحكومة حوالى ذلك الوقت العملَ فى تلك المناجم ـ قد جاء مخيبًا للآمال، إذ أربت تكاليف العمال ونفقات العمل على ما يستخرج من المعدن(١١٥). ولم يأت عام بضع وستين وثلاثمائة وألف ميلادية حتى أصدر وزير الناصر، حسن بن محمد بن قلاوون، أوامره بإبطال العمل فيها، ومن ثم انصرف الناس عنها وتراكمت عليها الرمال(١١٦).

والأهمية الثانية لهذه المنطقة كونها معبرًا من معابر التجارة المصرية؛ إذ كان يملكها التجار الذين يمارسون الإتجار مع بلاد الهند واليمن والحبشة، فترد المتاجر فى البحر حتى عيذاب ثم منها إلى قوص. وبذلك أضحت تلك المنطقة التى يسيطر عليها البجاة، حفيلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج «حتى كانت أحمال البهار والقرفة والفلفل توجد ملقاة بها، والقوافل صاعدة هابطة لا يعترض لها أحد. . . وكان لأهلها من الحجاج والتجار فوائد لا تحصى. وكان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقررة. ولأهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت، فإنهم يبالغون فى شحن الجلبة بالناس، حتى يبقى بعضهم فوق

بعض حرصًا على الأجرة، ولا يبالون بما يصيب الناس فى البحر، بل يقولون دائمًا علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح»[١١٧].

أما من الناحية السياسية.. فقد كان للبجاة ملك يسمى بالحدربى، مقره مدينة سواكن، وقد لجأ صاحب سواكن إلى مضايقة الحكومة القائمة بمصر بالتعرض للتجار أو بالثورة. فقد حدث فى سنة ٦٥٨ هـ ـ ١٢٥٩م أن ثار صاحب سواكن على السلطنة المملوكية، فحاربه متولى قوص واضطره إلى الفرار، ثم عاد يطلب الدخول فى الطاعة، مع بقائه حاكمًا على جزيرة سواكن، فوافق السلطان على ذلك[١١٨]. غير أن تلك الحال لم تستمر طويلا؛ فإن بيبرس بسط سلطانه الفعلى عليها، وتوسل لفرض ذلك السلطان حين أخذ صاحبها علم الدين اسبنغانى يتعرض للتجار المصريين ويتدخل فى أمورهم، فاستولى على ميراث من مات منهم فى البحر، وحرم أولادهم منه. فكتب إليه السلطان محذرًا ومنذرًا فلم يأبه لذلك، ولهذا رسم لمتولى الأعمال القوصية والإخميمية الأمير علاء الدين الخزندار بالتوجه إلى سواكن، ووصلت الحملة إلى عيذاب، وأرسل علاء الدين منها تجريدة إلى سواكن لإلقاء الرعب والتهويش على صاحبها الذى هرب فعلا. ثم قصد علاء الدين بنفسه إلى سواكن، بعد أن أكمل عدته من الرجال والسفن التى بلغت نيفا وأربعين، كما أتاه مدد من خمسة غلايين موسقة بالمقاتلة من القصير، وتمكن من دخول سواكن[١١٩]، ومهد أحوالها تمهيدًا يمكن معرفته، إذا علمنا أن صاحبها حاول العودة إليها فلم يستطع[١٢٠].

وفى سنة ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٦ م أمر السلطان باستخراج الزكاة من تلك الجهات، إلا أن ملك النوبة لم يهدأ خاطره لامتداد السيادة المملوكية إلى سواكن، فأغار عليها وعلى عيذاب وسبى وأسر وخرب، كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ ولذلك أرسل بيبرس حملته إلى بلاد النوبة سنة ٦٨٦ هـ ـ ١٢٨٧م[١٢١].

وإذا كانت تلك المناطق لم تسلم من عبث ملك النوبة.. فإنها لم تكن بمنأى عن إفساد الأعراب وعبثهم كلما خلا لهم الجو. وقد حدث فى سنة ٧١٥ هـ ـ ١٣١٥م أن سطا بعضهم على رسولى صاحب اليمن، وانتزعوا منهما هدية

سلطانهما إلى الناصر محمد، وذلك نكاية فى الأمير سيف الدين طقصبا متولى الأعمال القوصية، الذى اعتقل أميرهم قباضا. وقد ذهبت حملة لتأديبهم فى نفس الوقت الذى قصدت فيه حملة عز الدين أيبك جهاركس عبد الملك إلى النوبة فى رجب سنة ٧١٦ هـ ـ ١٣١٦م؛ لإقامة عبد الله برسنبو ملكًا عليها. فتوجهت الحملة المملوكية إلى برية عيذاب، مستصحبة معها قباضا أمير العرب المأسور، وحاول أمراء الحملة مفاوضة العرب فى رد ما أخذوه، لكن مشروع المفاوضة قد فشل، فانتقلت الحملة من عيذاب إلى سواكن، فبلغتها بعد مسيرة اثنى عشر يومًا، صادفت خلالها متاعب جمة من وعثاء الصحراء وصعوبة الحصول على الماء. وهناك أظهر متملك سواكن الطاعة والولاء، فأقيم بها نائبًا عن السلطان المملوكى(١٢٣).

ولم تشأ الحملة أن تنتهى إلى تلك الخاتمة، بل رأى أمراؤها أن يتعقبوا القبائل العربية الضاربة فى مجاهل السودان الجنوبى، واستصحبوا معهم خبيرًا عارفًا بالطرق والشعاب، وأوغلوا فى سيرهم سبعة عشر يومًا. واعترضت طوائف غير منظمة من أهل السودان طريق الحملة بين الفينة والأخرى؛ فقامت بين الجانبين ملاحم، ومناوشات يسيرة، ثم انتهى المطاف بالحملة إلى جبل صغير على شاطئ نهر أتبرا(١٢٣)، وهو المعروف باسم جبل زيناتيب(١٢٤)، واقتفوا آثار العربان فشردوهم، وأذهبوا شوكتهم(١٢٥). ولم تتبع الحملة فى عودتها نفس الطريق الذى جاء منه؛ لوعورته ونفاد ما معها من الأقوات، فيممت وجهها شطر مملكة الأبواب التى كان صاحبها موالِيًا لدولة المماليك، كما بينت الحوادث التى أشير إليها سالفًا. إلا أن صاحب الأبواب لم يأت لمقابلة الحملة بنفسه، وإنما لجأ إلى نفس السياسة التى اتبعها سلفه أثناء توغل حملة قلاوون. ولعله كان يرى أن الابتعاد عن ملاقاة الحملة المملوكية غنيمة، واكتفى بإرسال مائتى رأس من البقر والأغنام وكميات من الذرة لتموين الحملة، التى واصلت سيرها شمالا، حتى وصلت إلى دنقلة بعد سبعة عشر يومًا، حيث لقيت ضيافة حافلة من ملكها عبد الله برسنبو. «وقد حصل للعسكر فى هذه السفرة مشقة كبيرة، حتى بيعت تطبيقة النعال

بينهم بخمسين درهمًا، وبيع رطل البقسماط بدرهم ونصف إذا وجد. ونفق أكثر خيل العسكر وجمالهم» ووصلت الحملة أخيرًا إلى القاهرة فى ٩ من جمادى الآخرة سنة ٧١٧ هـ ـ ١٣١٧م، بعد أن مكثت فى بلاد البجاة والسودان ما يزيد على تسعة أشهر(١٢٦).

وقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته أنه لم يستطع سلوك طريق عيذاب إلى الحجاز لثورة البجاة والعربان هنالك، كما ذكر أن سلطان جزيرة سواكن هو الشريف زيد ابن أبى نمى، وهو ابن شريف مكة. وقد صارت إليه من قِبَلِ أخواله البجاة(١٢٧).

ولمدينة عيذاب نظام خاص؛ إذ كان حكمها مشاطرة بين البجاة والسلطنة المملوكية، فلها حاكم من قِبَلِ ملك البجاة، وآخر من قِبَلِ سلطان المماليك(١٢٨) كما أن بها موظفًا مصريًا مهمته أن يكون «مشارفًا على ما يرد من التجار»(١٢٩).

ولا تزال بقايا البجاة ممثلة بصحراء مصر الشرقية فى قبائل العبابدة والبشارية، ويرجح أن تسمية البشارية بهذا الاسم نسبة إلى إسحق بن بشر، زعيم بطن من بطون ربيعة التى اتجهت شرقًا واختلطت بالبجاة(١٣٠).

obeikandl.com

هوامش الفصل الرابع

١ ـ الطبرى ـ ١ ص ٣ ٢٥٩ والبلاذرى ـ ص ٢٣٧، وقد فصل الأخير أخبار حملة عمرو إلى النوبة، ومما جاء فيه: «ومن حديث عن شيخ من حمير أنه شهد النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب «فلم أر قوما أحد فى حرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحب أن أضع سهمى منك. فربما عبث الفتى منا فقال فى مكان كذا فلا يخطئه. وكانوا يكثرون الرمى بالنبل فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معاجلتهم؛ فرمونا حتى ذهبت الأعين. وفقدت مائة وخمسين (كذا) عينا مفقوءة فقلنا: ما لهؤلاء خير من الصلح. إن سلبهم لقليل فلم يصالحهم عمرو، وما زال يكالبهم حتى نزع فصالحهم ابن السرح. . .»

٢ ـ جاء فى المسالك والممالك لابن خرداذبة ص٢ ١٩ أن عثمان بن عفان هو الذى وجه عقبة ابن نافع الفهرى إلى النوبة. وهذا خطأ واضح.

٣ ـ Lane - poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 21.

٤ ـ الخطط (قيت) ص٢٨٩. وقد قال أحد الشعراء فى وصف تلك المعركة، ولم ترعينى مثل يوم حقله والخيل تعدو بالدروع مثقلة. و Butcher, Story of the Coptic Church, vol. l, p. 378

٥ ـ جاء فى الخطط جـ ١ ـ ص ٢٨٩ أن «البقط ما يقبض من سبى النوبة كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم، فإن كانت هذه الكلمة عربية فهى من قولهم فى الأرض بقط من بقل وعشب، أى تبذ من مرعى، فيكون معناه على هذا نبذة من العالم أو قطعة منه، ومنه بقط الأرض فرقه منها، وبقط الشئ فرقه. والبقط أيضًا ما سقط من

التمر إذا قطع..» وفى هذه التفريعات اللغوية تكلف يمكن تجنبه إذا أخذنا برأى جاستون **فيت**.

٦ ـ المسعودى مروج الذهب ـ جـ ٢ ص ٧٩.

Quatremere, Memoires, t. 11 p. 46 - 47.

٧ ـ ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ص ٩٣.

٨ ـ ابن الفرات ـ جـ ٧ ص ٤٥.

٩ ـ البلاذرى ـ ص ٢٣٧.

١٠ ـ Coulbeaux, t. 1 p.222.

١١ ـ الخطط ـ جـ ١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

١٢ ـ القلقشندى ـ جـ ٣ ص ١٤١.

١٣ ـ الخطط ـ جـ ١ ص ٢٣٦.

١٤ ـ Morie, Hist. de l'Ethiopie t. 1 p. 415.

١٥ ـ Lane - Poole, Hist. of Egypt. p. 27.

١٦ ـ Lane - Poole, Hist. of Egypt. p. 88.

١٧ ـ الخطط ـ جـ ١ ص ٣٠١،

Machmichael, Hist. of The Arabs in The Sudan, vol. 1 pp. 158 - 159.

١٨ ـ Memoires t. 11 p. 82.

١٩ ـ القلقشندى ـ جـ ٥ ص ٢٧٦،

Lane - Poole, Hist. of Egypt. p. 197.

٢٠ ـ يوجد بصبح الأعشى ـ جـ ٦ ص ٥٠٦ ـ ٥١١، ٥١٢ ـ ٥١٥ نص لمكاتبتين بعث بهما صلاح الدين إلى الخليفة العباسى يخبره بما تم على يديه من فتح بالنوبة.

٢١ ـ Lane - Poole, Hist. of Egypt. p. 197.

٢٢ ـ Lane - Poole, Hist. of Egypt. p. 197

obeikandi.com

٢٣ ـ Quatremere, Memoires, T. 11 pp 54 - 56.

٢٤ ـ النويرى ـ نهاية الأرب ـ جـ ٢٨ ص ١٠٩،

Wiet, Hist. de la Nation Egyptienne T. iv p. 432.

٢٥ ـ ابن الفرات ـ تاريخ الدول والملوك ـ جـ ٧ ص ٤٥ ـ ٤٦.

٢٦ ـ يطلق عليه النويرى (جـ ٢٨ ص ١٠٨) والمقريزى (السلوك جـ ١ ص ١٢٦) وابن الفرات (تاريخ الدول والملوك ـ جـ ٧ ص ٤٧) اسم مشكد. أما القلقشندى (جـ ٥ ص ٢٧٦) فقد ذكر أن اسمه مرتشكنز، وفى ابن خلدون (العبر ـ جـ ٥ ص ٤٠٠) مرتشكين والرسم الوارد هنا كما جاء فى مكمايل ولين بول.

٢٧ ـ ابن أبى الفضائل ـ النهج السديد ص ٣٩٨ والسلوك ـ جـ ١ ص ٦٢١.

٢٨ – وهى المكتوبة خطأ فى المراجع العربية باسم الدو (النويرى جـ ٢٨ ـ ص ١٠٩ ـ السلوك جـ ص ٦٢٢) ويؤكد تصحيحها بالدر ما ورد فى الخطط وأغار الأفرم على قلعة الدر وقتل وسبى (جـ ١ ص ٢٠٢) كذلك ذكر Burckhardt وجود قلعة حصينة بالدر Travels in Nubia p. 130 وجاء فى النهج السديد ص ٢٣٥ أن مدينة الدو قريبة من أبريم، وليس هناك غير الدر مدينة قريبة من أبريم.

٢٩ ـ يقول محمد رمزى بك فى حاشية له بالنجوم الزاهرة ـ جـ ٧ ص ٢٨٩ إنه قد تبين له بالبحث أن مجموعة جزائر ميكائيل هى التى تعرف باسم جانا الساب أو جانساب، وهى واقعة فى النيل على رأس شلال وادى حلفا تجاه خور موسى، ولعلها سميت بذلك نسبة إلى القديس ميكائيل.

٣٠ ـ ابن الفرات ـ تاريخ الدول والملوك ـ جـ ٧ ص ٤٧، وتقفير المراكب هو طلاؤها وملء الفجوات بين ألواحها بالقفر، ولاتزال هذه العملية معروفة باسم قلفطة أو قفلطة .

٣١ ـ المواعظ ـ جـ ١ ص ٢٠٢.

٣٢ ـ المواعظ ـ جـ ١ ص ٢٠٣.

٣٣ ـ السلوك ـ جـ ١ قسم ٢ ص ٦٢٢ ويطلق المقريزى فى الخطط على هذه المنطقة اسم بلاد الجنادل ـ جـ ١ ص ٢٠٣.

obeikandi.com

٣٤ ـ النهج السديد ـ ص ٢٣٥ .

٣٥ ـ Quatremere Tomei, Deuxieme Partie, Note 128.

٣٦ ـ ابن الفرات ـ جـ ٧ ص ٥٠ .

٣٧ ـ النهج السديد ـ ص ٢٣٦ والمقصود بالعدو هنا ملك علوة أو صاحب الأبواب.

٣٨ ـ السلوك ـ جـ ١ قسم ٢ ص ٦٢٢ .

٣٩ ـ السلوك ـ جـ ١ قسم ٣ ص ٩٧٤ (ملحق رقم ٥).

٤٠ ـ ابن الفرات ـ جـ ٧ ص ٥١ .

٤١ ـ أوردنا نص هذا اليمين فى ملحق رقم ٢ نقلا عن النويرى، نهاية الأرب ـ جـ ٢٨ ص ١٥٩، وقد ذكر الدكتور زيادة عزمه على نقله فى ملحق رقم ٥ بالسلوك قسم ٣، لكنه نسى ذلك سهوا.

٤٢ ـ أمر السلطان بيبرس كاتب السر بديوان الإنشاء محيى الدين بن عبد الظاهر أن يكتب للفارقانى فى كتاب تهنئة على ما أحرز من نصر، جاء فيه «وقرن النصر بهزم المجلس الأنهض، وأهلك الأسود بميمون طائر النصر، وكيف لا واقنقر هو الطائر الأبيض وأقر لأهل الصعيد كل عين، فلا ترون بعدها غراب بين، ونصر ذوى السيوف على ذوى الحراب، وسهل صيد ملكهم على يد المجلس، وكيف يمر على النسر صيد غراب» ابن الفرات ـ جـ ٧ ص ١٠١ .

٤٣ ـ جمال سرور ـ الظاهر بيبرس ـ ص ١٢٢ نقلا عن ابن شاكر الكتبى فى عيون التواريخ.

٤٤ ـ النهج السديد ـ ص ٢٣٦ وكذلك الخطط (قيت ص ٢٩٧ «حاشية» نقلا عن مخطوط نصر الجمان».

٤٥ ـ Quatremere, Memoires 11, p. 111. ولعله استقى هذه المعلومات من كتاب تاريخ قلاوون المخطوط.

٤٦ ـ النهج السديد ـ ص ٤٤٦ .

٤٧ ـ تاريخ ابن الفرات ـ جـ ٧ ص ٤٥ .

obeikandi.com

٤٨ ـ Wit et Maspeto, Mat. pour servir a la Geog. de l'Egypte p. 214.

٤٩ ـ القلقشندى ـ جـ ١٤ ص ٣٧٤.

Wiet, Hist. de la Nation Egyptienne iv p. 435.

٥٠ ـ لم يرد ذكر لهذه الحملة بالمراجع العربية المتداولة هنا إنما أوردها Quatremere, Mem. 11 p. 111. والراجح أنه أخذها عن المخطوط الخاص بتاريخ قلاوون.

٥١ ـ يكتب فى بعض المراجع شمامون أو شمانون.

٥٢ ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٧٣٦ ـ ٧٣٧، ابن الفرات ـ جـ ٨ ص ٥٢ ـ ٥٣.

٥٣ ـ Wiet et Maspero, Mat. pour servir a la Geog. de l'Egypte p. 157.، وكانت تعتبر قوص أيضًا منفى للشخصيات الخطيرة التى يخشاها سلاطين المماليك، ومن أمثلة ذلك الخليفة المملوكى بالله العباسى الذى نفى إلى قوص فى عهد السلطان الناصر محمد.

٥٤ ـ Quatremere, Memoires 11 p. 109 - 112.

Butcher, Story of the Coptic Church Vel 11 p. 174 - 175.

٥٥ ـ المقريزى ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٧٣٧.

٥٦ ـ Quatremere, Memoires 11 p. 113.

٥٧ ـ Quatremere, op. cit., 11 p. 113.

٥٨ ـ Quatremere, op. cit. pp. 112 - 113.

٥٩ ـ ذكر ابن الفرات أسماء الأمراء الذين جردت أطلابهم، وهم الأمير كتبغا المنصورى، وبدر الدين بيدار المنصورى، وسيف الدين بهادر، وعز الدين الطيبرسى، وشمس الدين سنقر الطويل (تاريخ الدول والملوك جـ ٨ ص ٨٢).

٦٠ ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٧٤٩ ـ ٧٥٠.

٦١ ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٧٥٢، وتاريخ ابن الفرات ـ جـ ٨ ص ٩١.

٦٢ ـ يقال إن سمامون قد عرى هذا الملك ولف حوله سيور جلد طرية، فلما يبست حزت جسمه وقتلته (ابن الفرات ـ جـ ٨ ص ٩٢).

obeikandl.com

٦٣ ـ وردت صيغة هذا اليمين فى القلقشندى ـ جـ ١٣ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

٦٤ ـ نهاية الأرب ـ جـ ٢٩ ص ٢٩١.

٦٥ ـ الملك الصالح علاء الدين هو ابن السلطان قلاوون الذى ولاه السلطنة فى حياته؛ ليتمكن من محاربة التتار. وقد استمر هذا الابن قائمًا بأمور السلطنة مكان أبيه من ٦٧٩ ـ ٦٨٧ هـ، ثم توفى فى حياة أبيه.

٦٦ ـ القلقشندى، صبح الأعشى ـ جـ ١٠ ص ١٧٥، وكذلك ابن الفرات ـ جـ ٨ ص ٩٢.

٦٧ ـ الألطاف الخفية لابن عبد الظاهر ـ ص ٢٩ ـ ٣١. وجميع ما ورد هنا عن علاقة الأشرف خليل بالنوبة مأخوذ من هذا المصدر.

٦٨ - كتاب الألطاف الخفية ص ٣١.

٦٩ ـ السنباذج حجر معرب (القاموس المحيط ـ ص ٣٥٤)، وجاء فى الخطط ـ جـ ١ ص ١٩١ أنه حجر يخرط به الجوهر ويخرج من النيل فى مواضع النوبة.

٧٠ ـ جاء فى صبح الأعشى ـ جـ ٥ ص ٢٧٦ أن اسم هذا الملك أمى، وقد رجح الدكتور زيادة هذه التسمية (السلوك ـ جـ ٢ ص ٧ حاشية رقم ٧) بيد أن معظم المراجع الأخرى تؤيد تسميته باسم إياى، مثل ما جاء فى أبى الفدا ـ جـ ٤ ص ٥٣، والنويرى ـ جـ ٣٥ ص ٢٤، والدرر الكامنة ـ جـ ١ ص ٤٢١، وتاريخ ابن الوردى ـ جـ ٢ ص ٢٥٣، وأورده مكمايكل برسم أماى .Hist. of the Arabs Vol t. p. 186

٧١ ـ السلوك ـ جـ ٢ قسم ١ ص ٢٩.

٧٢ ـ الدرر الكامنة ـ جـ ١ ص ٤٢١ وأشار القلقشندى إلى أن كربيس قد تولى عرش النوبة إثر موت أخيه، لا بعد مقتله (صبح الأعشى ـ جـ ٥ ص ٢٧٦) وترجح رواية المقريزى مقالة ابن حجر العسقلانى؛ إذ ذكر المقريزى أن إياى مات مقتولا (السلوك ـ جـ ٢ قسم ١ ص ٢٩) إنما يختلف الاثنان فى تاريخ القتل، فيجعله المقريزى ٧١٦ هـ، وكذلك ذكر أيضًا أن مقدم إياى إلى مصر كان فى ٧٠٩ هـ. يضاف إلى هذا أن قد جاء اسم كرنتس فى تاريخ ابن خلدون ـ جـ ٥ ص ٤٢٩ على أنه كربيس، وهذا تحريف واضح.

٧٣ ـ القلقشندى، صبح الأعشى ـ جـ ٥ ص ٢٢٧ ـ ٢ ـ هؤلاء الأمراء الذين جردوا فى هذه الحملة هم عز الدين أيبك جهاركس عبد الملك، وهو المقدم على العسكر، والأمير صلاح الدين طرخان بن الأمير بدر الدين بيسرى، والأمير علاء الدين على، والأمير سيف الدين الحسامى (السلوك ـ جـ ٢ ص ١٦١).

٧٤ ـ يسميه القلقشندى عبد الله نشلى (صبح الأعشى ـ جـ ٥ ص ٢٧٧) ويذكر أنه هاجر إلى مصر وأسلم وحسن إسلامه، وأقام بالأبواب السلطانية، وأجرى عليه الملك الناصر الأرزاق.

٧٥ ـ جاء فى القلقشندى ـ جـ ٥ ص ٢٧٧ أن كربيس قد أسلم عقب وصوله إلى مصر.

٧٦ ـ النويرى، نهاية الأرب ـ جـ ٣٠ ص ٩٥ ـ ٩٦ وقد وردت أخبار تلك الحملة، وما اتصل بها من أحداث فى كثير من الاقتضاب فى السلوك ـ جـ ٢ ص ١٦١ ـ ١٦٢.

٧٧ ـ السلوك ـ جـ ٢ ص ٢٥٠.

٧٨ ـ Mamichael, Hist. of the Arabs in the Sudan vol t; p. 187.

٧٩ ـ Wiet, Hist. de la Nation Egyptienne, t. iv p. 457.

٨٠ ـ Somers Clarke, Christian Antiquriies p. 13.

٨١ ـ ويذكر أن مملكة النوبة المسيحية قد تقسمت بعد تداعيها إلى خمسة عشر قسمًا. Budge, Hist. of Ethuopia, vol. 1. p. 118 .

٨٢ ـ Budge, op, cit. vol 1 p. 119 ويقال إن مملكة النوبة المسيحية قد انقسمت بعد تداعيها إلى خمسة عشر قسمًا.

٨٣ ـ Palmer, The Bornu p. 204.

٨٤ ـ Palmer,op. cit., p. 205.

٨٥ ـ جاء فى كتاب الفونج (ص ١، ٢) أن الفونج من بنى أمية لما انتزع منهم الملك وهربتهم بنو العباس، جاء منهم رجل إلى هذا المحل واستولدوا النساء. وذكر ابن إياس جـ ١ ص ٢٩ ـ ٣١ خبر فرار عبيد الله بن محمد أخر ولاة مصر الأموية إلى بلاد النوبة، واستجارته بملك النوبة فلم يجره.

٨٦ ـ يلقب زعيم الفونج باسم الملك (تاريخ الفونج ص ٢).

٨٧ ـ شقير ـ تاريخ السودان ـ جـ ٢ ص ١١٣ ـ وكذلك Inc. of Islam Art. Sudan.

٨٨ ـ Somers Clarck, op. cit. p. 11.

٨٩ ـ شقير ـ تاريخ السودان ـ جـ ١ ص ٦٦ .. St. John, Travels in Nubia Vol. 1 p. 433.

٩٠ ـ ذكر صاحب تاريخ الفونج ص ١ أن مملكة سنار لم تشتهر بها مدرسة علم ولا قرآن، ويقال إن الرجل كان يتزوج المرأة ويطلقها فيتزوجها غيره فى نهارها بدون عدة، إلى أن جاء الشيخ محمود الولى من مصر، وكذلك الشيخ إبراهيم البولاد من مصر إلى دار الشايقية ودرس فيها الفقه.

٩١ ـ توجد فى النيل على مقربة من كورتى جزيرة، تعرف بجزيرة الفونج.

٩٢ ـ المقريزى ـ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٣٨.

٩٣ـ المقريزى ـ البيان والإعراب ص ٥٠.

٩٤ – هذا رأى مؤرخى مصر الإسلامية، وهو أن غرض هذه المؤامرة هدم الدولة الجديدة. إنما يرى ڤيت أنها مجرد ثورة قام بها السودانيون بتحريض ملك النوبة لإثارة القلاقل فى الوقت ذاته الذى بدأت فيه دولة بنى أيوب تؤسس لنفسها بمصر. ومما يؤيد ذلك أن شمل المؤامرة قد تبعثر بمجرد زحف توران شاه إلى بلاد النوبة.

٩٥ ـ Wiet, Hist. de la Nation Egyptienne t. 4 p. 310.

Macmichael, Hist. of the Arabs in the Sudan vol. 1 p. 153.

وأحمد لطفى السيد ـ قبائل العرب فى مصر ص ٤٧ ـ ٤٨.

٩٦ ـ Wiet, op. cit., t. iv p. 457.

٩٧ ـ الخطط ـ جـ ١ ص ١٩٩، وكذلك :

Macmichael, op. cit., 1 pp. 148 - 149.

٩٨ ـ ابن خلدون ـ العبر ـ جـ ٥ ص ٤٢٩.

٩٩ ـ نفس المرجع والصحيفة.

obeikandl.com

١٠٠ ـ Macmichael, Op. Cit. vol. 1 p. 150.

١٠١ ـ ابن الفرات ـ تاريخ الدول والملوك ـ مجلد ٩ جـ ٢ ص ٣٣٤ .

١٠٢ ـ القلقشندى، صبح الأعشى ـ جـ ٤ ص ٦٩ .

Macmichael, op. cit. vol. 1 p. 151.

١٠٣ ـ Kammerer, La Mer Rouge t. 1 p. 292.

١٠٤ ـ القلقشندى ـ جـ ٥ ص ٢٧٧ . Enc. of Islam Art. Nuba

١٠٥ ـ العمرى ـ تعريف ص ٥٧ .

١٠٦ ـ نهاية الأرب ـ جـ ٢٨ ص ٤٥، والسلوك ـ جـ ١ ص ٦٢٦ .

١٠٧ ـ Atya, Egypt & Aragon pt. 36 - 38.

١٠٨ ـ العمرى ـ التعريف ص ٥٨ .

١٠٩ ـ صبح الأعشى ـ جـ ٨ ص ٤٢ .

١١٠ ـ صبح الأعشى ـ جـ ٨ ص ٧ .

١١١ ـ مسالك الأبصار ـ ص ٩٢٦ .

١١٢ ـ صبح الأعشى ـ جـ ٤ ص ٦٨ ـ جـ ٨ ص ٥ .

١١٣ ـ الخطط ـ جـ ١ ص ١٩٥ .

١١٤ ـ الخطط ـ جـ ١ ص ٢٣٣ .

١١٥ ـ الخطط (قيت) ص ٢٧٩ (حاشية نقلا عن مخطوط نثر الجمان).

١١٦ ـ الخطط ـ جـ ١ ص ٢٣٣ .

١١٧ ـ الخطط ـ جـ ١ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

١١٨ ـ أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ جـ ٧ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

١١٩ ـ جاءت فى النويرى (نهاية الأرب) جـ ٢٨ ص ٧٣ برسم كلالين، وصحتها غلايين Galleens .

١٢٠ ـ النويرى (نهاية الأرب) جـ ٢٨ ص ٧٣ ـ ٧٤، والسلوك ـ جـ ١ ص ٥٥٠ .

obeikandl.com

١٢١ ـ ابن أبى الفضائل ـ النهج السديد ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

١٢٢ ـ جاء فى السلوك ـ جـ ٢ ص ١٤٥ أن من بين أمراء هذه الحملة سيف الدين الساطى، وقد جاء فى النويرى أنه سيف الدين الدمياطى (النويرى ـ جـ ٣٠ ص ٩٨).

١٢٣ ـ نهر أتبرا هو المعروف فى الخرائط باسم عطبرة، وقد ورد فى النويرى بالرسم الأول الذى يطلقه عليه السودانيون أيضًا (نهاية الأرب ـ جـ ٣٠ ص ٩٧).

١٢٤ ـ جاء فى النويرى نفس المرجع والصحيفة أن اسم هذا الجيل ارياب، وقد صحح باسم زيناتيب Zeynatyb من

Burckhardt, Travels in Nubia, p; 196.

١٢٥ ـ كانت مجاهل السودان مكمنًا قصيًا للقبائل العربية المتمردة، وملجأ للهاربين من وجه السلطنة المملوكية، ومن أمثلة ذلك أن الأمير كراى بعد أن حلت به نقمة الناصر محمد هرب إلى بلاد السودان (السلوك ـ جـ ٢ ص ٣٦ ـ ٣٧).

١٢٦ ـ النويرى ـ جـ ٣٠ ص ٩٧ ـ ٩٨، وقد وردت أخبار هذه الحملة باختصار فى (السلوك ـ جـ ٢ ص ١٤٥).

١٢٧ ـ ابن بطوطة ـ جـ ٢ ص ١٦١ .

١٢٨ ـ Wiet, Mat. pour servir a la Goog. de l'Egypte p. L 129. وقد جاء فى رحلة ابن بطوطة أن «ثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البجاة» (تحفة النظار ـ جـ ١ ص ١١٥).

١٢٩ ـ النهج السديد ص ٣٧٥ .

١٣٠ ـ Macmichael, op. cit., Vol, 1 p. 14.